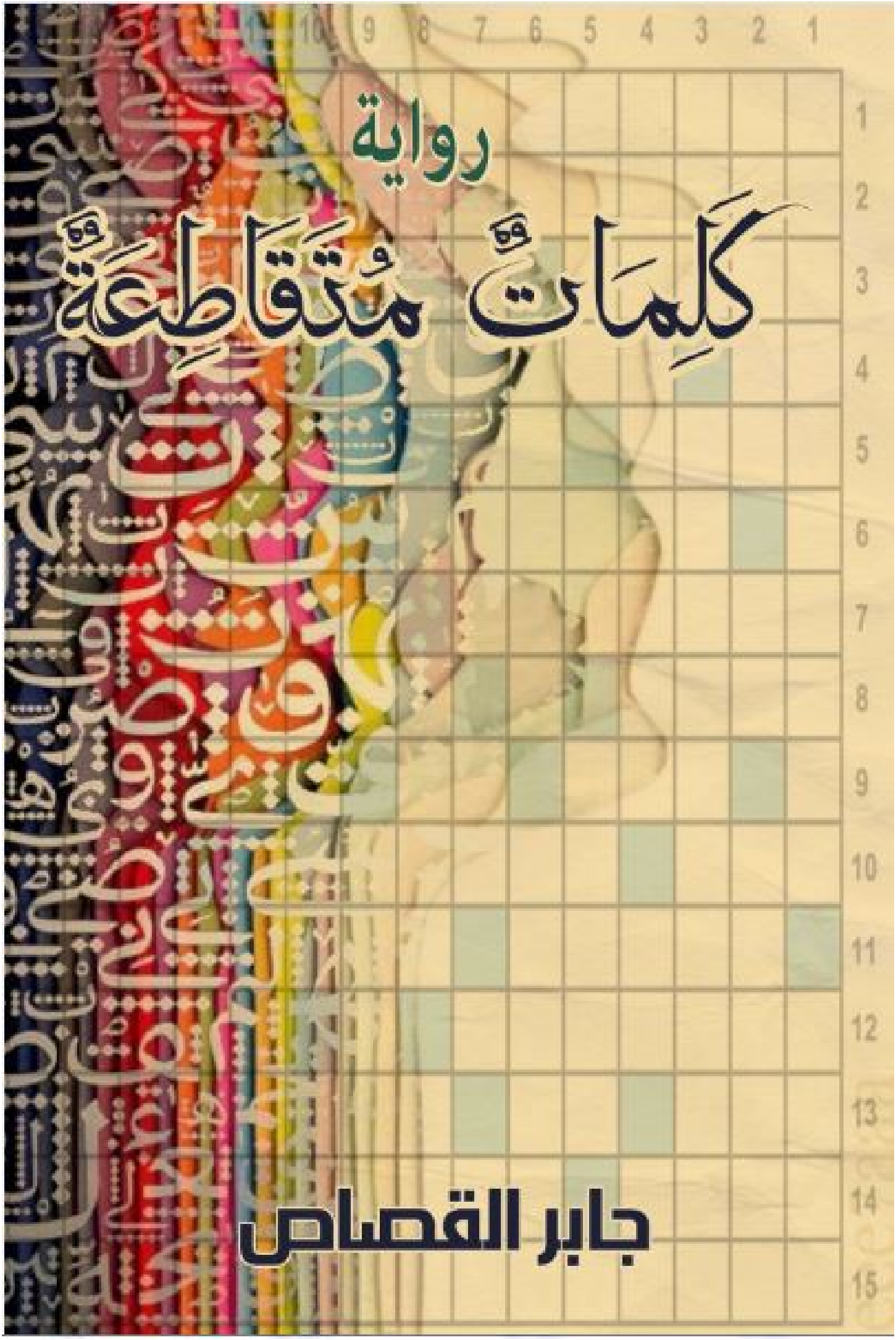

رواية
كَلِمَاتٌ مُتَقَاطِعَةٌ
جابر القصاص

روايـــة

كـلِمَات مُتقَاطـعَة

بـقـلـم

جــابـر الـقــصـاص

🕯 إهـداء..

إلى ابني **عمر**..

ثمرة الفؤاد.. وجرح العمر النازف!

أينع كالربيع

ورحل.. مخلفًا وراءه الذبول

وصقيعًا لا يزول!

جابر

٢٥ ديسمبر ٢٠٢٣

الفصل الأول

التمعت عيناها بشدة وهي تحدق في عينيّ مباشرة، قبل أن تقول بكياسة:-

- "(طاهر) يا عزيزي: أنت لم تكن يومًا زوجًا مثاليًا، ولا حتى جيدًا، لكنك لم تكن زوجًا سيئًا للغاية أيضًا، يمكن القول: إنك لم تتجاوز الحد الذي يجعلك لا يطاق، وهذا جيد في زماننا هذا كما تعرف!"

للمرة الأولى أراها تتحدث بمثل هذه الكياسة، مما جعلني أتقبل هذا النقد بصدر رحب، يقولون دائمًا إن الأسلوب الراقي المهذب هو أفضل وسيلة للانتقاد، الآن أيقنت أنهم على حق.. لكني وجدت نفسي عاجزًا عن الرد، أو قول أي شيء، فاكتفيت بالإنصات، وكان هذا إيذانًا لها بالمتابعة.

- "وأعتقد أني جازيتك على هذا، فلم أخنك في أي يوم من الأيام، بالرغم من أن الفرص سنحت لي لفعل هذا مرارًا، لقد كنت دائمًا تلك الزوجة الجميلة المرحة اللبقة، وأنت تعرف أكثر مني ما تمثله الزوجة الجميلة المرحة اللبقة من إغراء للرجال، خاصة لو كانت متزوجة من رجل سمح شديد الفضول غير محبوب مثلك!"

- "حقًا؟! هل أنا كما تقولين؟"

- "أرأيت؟ كل ما أهمك رأيي فيك، ولم تكترث بحديثي عن الفرص التي سنحت لي لخيانتك، هذا يؤكد ما قلته عنك!"

لديها وجهة نظر على أية حال! لكني أتمنى لو أنها تتجاوز هذه النقطة، لقد أطالت المقدمات، وهذا غير جيد، أنا لا أحب المقدمات أساسًا، فلتدخل في صلب الموضوع، لأني سئمت الإنصات لهذا السخف.

- "على كل حال هذا لا يفيد الآن، لقد هرمنا، وكلانا لم يعد كما كان، كما أنك الآن مريض بهذا الداء العضال، وأصبحنا نعرف أنه لا أمل في شفائك، وكل الأشياء التي

يجتهد الأطباء في تقديمها الهدف منها تقليل الأعراض ليس أكثر، لكنك عاجلًا ستفقد حواسك تباعًا، وقبل ذلك ستفقد القدرة على الحركة وتصبح مقعدًا، ثم.. ثم ينتهي كل شيء"..

ما زالت تستطرد في المقدمات، أعتقد أنها لن تتوقف إلا إذا أوقفتها أنا بنفسي، قلت بوهن:-

- "(زينب) من فضلك.. أنا .....!"

لكنها قاطعتني بذات الكياسة:-

- "مهلًا يا عزيزي.. من فضلك، امنحني الفرصة للحديث، ولا تنس أني مكثت نحو ثلاثين عامًا أنصت إلى الهراء الذي تقوله، أو أتظاهر بالإنصات في معظم الأحيان، هل تنكر هذا؟ بل إني طالما ضحكت على دعاباتك السمجة، من أجل ألا أشعرك بالسخافة، في السنوات الأولى من زواجنا على الأقل، أنت مدين لي بكل هذا، وعليك سداد بعض هذا الدين بالإنصات إليّ للمرة الأولى بحياتك!"

حسن، هذا عادل جدًا، ليكن.. هاتي ما عندك! انتبهت إلى أنها المرة الأولى بالفعل التي أجدني منصتًا إليها وهي تتحدث! نحن زوجان منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ومع ذلك يكاد يكون الحوار بيننا منعدمًا، لا سيما في السنوات الأخيرة..

- "ما أريد قوله: إنني كنت لك الزوجة الوفية طيلة حياتك وصحتك، وسأظل كذلك في مرضك، وبعد موتك، ربما لو كنت مرضت ومُتّ قبل سنوات لكنت أنا الآن زوجة لرجل آخر أفضل منك، لكنك وغد مثابر صمدت لفترات طويلة، ثم سقطت وأنا أداعب الشيخوخة، وبالتالي لا يوجد خيار أمامي سوى أن أظل زوجة وفية حتى النهاية!"

لا زالت تتحدث بمنطق سليم حتى الآن، وخالٍ من الثغرات، ترى هل كانت هكذا دومًا وأنا لم أنتبه، أم أنها اكتسبت تلك المنطقية بطريقة ما؟

في هذه اللحظة اقتربت مني أكثر، وقد ازدادت عيناها اتساعًا وغورًا، واستطردت في تساؤل:-

– "هذه أول – وربما آخر– فرصة تكون سانحة لأن تخبرني الحقيقة: هل كنتَ أنت زوجًا وفيًا بدورك؟!"

ولوهلة اعتقدت أن هاتين العينين الغائرتين سوف تبتلعانني..

***

ماذا تريد أن تعرف يا سيدي؟

اسمي؟ لا لن أخبرك باسمي بالطبع، أعرف أنك تستطيع معرفته بسهولة، لو سألت أي شخص من هؤلاء البلهاء من حولنا عنه سيخبرك، لكن على الأقل لن تعرفه مني، ولن أمنحك إياه طواعية، كما أنك لا تستطيع أن تجبرني على الإفصاح به، أو بأي شيء آخر! أنت جئت إليّ لتعرف شيئًا ما، وهذا الشيء لا علاقة له باسمي.

هذا ليس حرصًا مني على شيء، ولا خوفًا من أي شيء، يمكنك أن تعتبرها مسألة مبدأ، أنا لا أقول إلا ما أريد قوله، وسأقول لك بعض الأشياء عني، ليس من بينها اسمي: أنا موظف متقاعد، كنت أعمل بواحدة من تلك الهيئات الحكومية التي لا تنتج شيئًا، ولا يستفيد منها الناس بأي شيء!

لن أحكي لك عن إنجازاتي فيما مضى بهذه المهنة، ففي الواقع لم تكن لي أية إنجازات على الإطلاق، لقد كانت وظيفة بلا وظيفة، فقط أجلس على مكتب حقير، أقرأ في الصحيفة، وأناقش زملائي في كل شيء، وأتبادل الدعابات والمزاح السخيف، ولا يعدم الأمر أن يأتيني أحدهم ببعض الأوراق فأحيله إلى موظف آخر، وهكذا.. وفي آخر النهار أعود إلى بيتي، لأستريح قليلًا من عناء هذا العمل الفارغ، قبل أن أغادر إلى المقهى لأواصل قراءة الجريدة، دون أن أصدق حرفًا مما هو مكتوب فيها، وفي آخر الشهر أقبض راتبي وأنا أسب الأوضاع، وأنتقد الظلم الواقع على أمثالي من محدودي الدخل، الذين يتقاضون راتبًا ضئيلًا لا يتلاءم مع متطلبات الحياة، بينما اللصوص يتمرغون في خيرات الوطن بلا رادع!

هكذا أمضيت مسيرتي المهنية حتى بلغت سن التقاعد القانونية، ليصبح المقهى مأواي الذي ألوذ به معظم الأوقات بالنهار والليل، ولا تزال الجريدة تصحبني في كل مكان، بالرغم من أني لا أصدق حرفًا مما كتب فيها!

لماذا أحمل الجريدة دائمًا؟ لا، ليس على سبيل الوجاهة إن خطر هذا بعقلك، فلم يعد حمل الجرائد في الأيدي – أو دسها تحت الإبط أمام الناس– وجاهة، أو شيئًا يسترعي الانتباه أو يثير الإعجاب، أو حتى يعطي الآخرين قناعة عن الشخص أنه مثقف، الآن صاروا يحملون الجوالات، ويتصفحونها بكل مكان، ويستعملونها في كثير من الأشياء، واستغنوا عن الأوراق والكتب نهائيًا، حتى صرت أنا وأمثالي من حملة الجرائد مهددين بالانقراض، هذه حقيقة أعترف بها.

في الواقع أنا أحمل الجريدة لأني مهووس بحل الكلمات المتقاطعة، إنها عادة فيّ منذ الصبا، لا أستطيع التخلص منها أبدًا، نعم أنا لست مجرد مدمن كلمات متقاطعة، بل مهووس بها بدرجة لا محدودة، يمكنني أن أقاوم النظر إلى امرأة حسناء مثيرة القوام تعبر الطريق أمامي، ويمكنني أن أقاوم التدخين إذا عزم عليّ أحدهم بسيجارة، خاصة من السجائر ذات القاعدة الزرقاء أو الحمراء، كما يمكنني أن أقاوم كوبًا ساخنًا من القهوة وضع أمامي، لكن لا يمكنني أبدًا مقاومة تلك المربعات البيضاء والسوداء المتداخلة، ذات التخطيط الأفقي والرأسي، والعبارات المكتوبة بجانبها مرقمة، التي تتحدى تفكيري، وتطالبني بملء تلك الفراغات البيضاء حسب المطلوب بها، صدقني إنني أشتري الجرائد منذ عقود فقط من أجل الحصول على هذه المتعة!

رباه! هل جربت أنت هذا الشعور؟! حين يقرع اللغز عقلك، وتبحث في ذهنك عن إجابته، وتقيس حروف الإجابة على عدد الفراغات، وما إذا كانت تناسب حروف الإجابات الأخرى التي تتقاطع معها أم لا، وتشعر بالظفر إذا كانت الإجابة ملائمة لكل هذا، كما تشعر بالضيق والخيبة إذا لم تجدها ملائمة، ثم تعاود البحث عن إجابة أخرى ملائمة.. يا لها من متعة!

بعض هذه الألغاز لغوية، تعتمد على معرفتك بالمرادفات اللغوية، وبعضها يتعلق بأحداث ووقائع وشخصيات تاريخية، وبعضها يتعلق بأسماء كائنات حية أو غير حية موجودة أو غير موجودة من حولنا، بجانب أشياء أخرى عديدة، انظر مثلًا، هنا يطلب اسم كاتبة نيوزلندية، من أربعة عشر حرفًا، هل تعرفها؟ بالتأكيد لا، فأنتم لا تميلون إلى القراءة، وهوايتكم الوحيدة هي جمع النقود وإنفاقها، إنها (كاثرين مانسفيلد)، لم أقرأ لها شيئًا عن نفسي لكني سمعت عنها وأعرف اسمها جيدًا، فقد تكرر في كلمات متقاطعة أخرى حللتها من قبلها، بل هي التي حلت نفسها في الواقع حين تمكنت من حل الفراغات المتقاطعة معها..

حسن.. انظر هنا، في الألغاز العمودية: إنه يطلب اسم موقد حجري كان يستعمله العرب قديمًا من خمسة حروف، هذا اللغز يتقاطع مع (كاثرين مانسفيلد) في حرف الثاء، ما الموقد الحجري الذي كان يستعمله العرب قديمًا ويشتمل على حرف الثاء؟ أثافي.. هل سمعت عنه؟ لو أنك قرأت شيئًا من الشعر الجاهلي لعرفته، أنا قرأت الكثير منه، كلمة (أثافي) تتقاطع مع (كاثرين مانسفيلد) في حرف الثاء، هل أدركت الآن المتعة التي أتحدث عنها؟ صدقني إنها بالنسبة لي متعة كبرى تفوق ما تجده أنت وأمثالك من الفحول في رفقة أكثر النساء إثارة وشبقًا.

انظر هنا أيضًا: حيوان منقرض، بالطبع ستفكر في الديناصور، لكن كلمة ديناصور من سبعة أحرف، بينما المطلوب خمسة، تعال ننظر الكلمات التي تتقاطع معها عموديًا، شراب محرم من ثلاثة أحرف، هذه سهلة جدًا، خمر، أنت تعرف أن الخمر محرم في ديننا، أعرف أنك تشربها بالرغم من ذلك، إن الخمور بأنواعها تمثل طقسًا أو تقليدًا أساسيًا في جميع سهراتكم واحتفالاتكم، وترون فيها نوعًا من الوجاهة، لكنها تظل محرمة رغم ذلك، لا تنزعج، أنا لست بصدد محاسبتك على أفعالك، أنا نفسي لست متدينًا ولا ملتزمًا، وأفعل بعض الأشياء السيئة، أنا أحلل الإجابة فقط، الشراب المحرم من ثلاثة أحرف: خمر، وهذا يتقاطع مع الحيوان المنقرض في حرف الميم، تعال ننظر لغزًا آخر يتقاطع معه،

رئيس أمريكي من سبعة أحرف، هل عرفته؟ إنه لغز سهل جدًا، جميع الرؤساء الأمريكيين أسماؤهم طويلة عدا واحد، إنه (جورج بوش)، لا يهم أيهما: الابن أم الأب، المهم أن اسم (جورج بوش) مكون من سبعة أحرف، ويتقاطع مع الحيوان المنقرض في حرف الواو، إذن لدينا حيوان منقرض من خمسة أحرف، من بينها: حرفا الميم والواو، وتبقى لنا ثلاثة أحرف فقط، هل عرفته؟ أم نواصل النظر في الألغاز الأخرى التي تتقاطع معه؟

أرى على وجهك الضجر يا سيدي، عمومًا أنا عرفته من أول وهلة، دون الحاجة إلى النظر في الحروف التي تتقاطع معه، إنه (ماموث)، هل سمعت عنه؟ الماموث هو الفيل المشعر، يقولون إنه كان يعيش في أوروبا، وبلغ ارتفاعه ما بين أربعة وخمسة أمتار حتى منكبيه، وعاصر إنسان ما قبل التاريخ، وكانت عظامه مفيدة في البناء، واستُخدِم عاجُه في نحت التماثيل الصغيرة، لقد انقرض قبل نحو مليون سنة.

من الواضح أنك لست مهتمًا بالكلمات المتقاطعة، وتشعر بالضجر من حديثي عنها، أو ربما تشعر بالضجر لأنك أتيت لتعرف مني شيئًا ما بعيدًا كل البعد عما أحكي فيه الآن، لماذا اخترتني أنا بالذات وأنت لا تعرف اسمي؟ أنا أعرف إجابة هذا السؤال، أنت تجلس على هذا المقهى منذ أكثر من ساعة، وعيناك مسلطتان أغلب الوقت على تلك البناية المقابلة، كأنك ترقب شيئًا ما هناك، في الواقع لم يكن من العسير ملاحظة شخص مثلك، فلا أحد يجلس على هذا المقهى – ولا حتى يعيش في الحي كله – يرتدي بدلة (سيزار أتونيلي) سواك، سكان هذا الحي من الطبقة المتوسطة أو ما تحتها، وأنت مظهرك يقطع بأنك من طبقة عليا تفوق مستوى سكان هذا الحي، ولا أستبعد أن تكون سيارتك البي إم دبليو متوقفة بالشارع المجاور، وبها سائق يقطع الانتظار بالتدخين ومراقبة النساء العابرات.

أنت أيضًا لاحظتني مثلما لاحظتك، ولاحظتَ أني معروف للجميع هنا، كما أني أعرف الجميع ولا أفتأ أحادثهم وأمازحهم، وهم يبادلونني الحديث والمزاح في تبسط، وهكذا تكون لديك انطباع أني أنا الرجل الذي يعرف كل شيء، لهذا نقلت مقعدك من

هناك لتجلس في مواجهتي، وحاولت فتح حديث معي لتسوق المقدمات التي توصلك إلى الغرض الرئيس من الحديث، أليس هذا صحيحًا؟

بالتأكيد أعرف هذا، كما أني أعرف ما الذي تريد أن تسأل عنه وتعرفه، وبالتأكيد لديّ معرفة به، فأنا أعرف الكثير من الأمور عن أهل هذا الحي، وعيناي وأذناي يخترقن جميع هذه الجدران الصماء، ويصلني الكثير من المخبأ داخل غرفها المغلقة، وأغلب الناس هنا يعرفون أني أعرف، وبعضهم يضايقه هذا كثيرًا، والبعض الآخر لا يبالي بالأمر، وهو يعتقد أنه ليس لديه ما يخجل إذا عرفه أمثالي، هذه أكبر مزية من الجلوس بالمقاهي، إنها تجعلك تعرف الكثير عن الناس.

المشكلة الآن ليست فيما أعرفه أنا، ولا فيما تريد أن تعرفه أنت، المشكلة في الوازع الأخلاقي الذي سيملي عليّ القرار: هل أخبرك أم لا؟ فأنا لا زلت حتى هذه اللحظة في حيرة من أمري، ولم أصل إلى ذلك القرار بعد!

لا.. لا.. إياك أن تفكر في هذا، لست من ذلك النوع الذي يمكن إغراؤه بالمال، صحيح أني مجرد رجل بالمعاش، ولديّ زوجة وأبناء، لكنك لا تعرف أن اثنين من أبنائي تخرجا في الجامعة واستطاعا بطريقة ما الحصول على وظائف جيدة في مواقع لا بأس بها، كما أنك لا تعرف أن لي شقيقًا توليت أنا رعايته وتكفلت به منذ طفولته، حتى أتم دراسته، ثم سافر إلى الخليج، ونجح في كسب الكثير من المال، ولم يكن جاحدًا، وها هو يرسل لي بعض المال من حين لآخر كنوع من رد الجميل، خاصة بعد علمه بمرضي إذن أنا لست بحاجة إلى المال الذي قد تفكر في إغرائي به، كما أني صاحب مبدأ، وأصحاب المبادئ لا يمكن شراؤهم بالمال، هل تفهم هذا؟

كذلك لا تفكر في تهديدي أو الضغط عليّ، فليس لديّ ما أخسره في هذه المرحلة بالذات! أنت لا تعرف أني مصاب بالتصلب المتعدد إم إس، اكتشفنا هذا مؤخرًا، أنت لا تعرف هذا المرض، أنا نفسي قبل شهرين مضيا لم أكن أعرف شيئًا عنه، لكن ذلك

الطبيب السمج ذا الوجه النحيل الشاحب هو من حدثني عنه بعد أن نظر مليًا في نتائج فحوصاتي، ثم قال بصوت جاف:-

- "للأسف أنت مصاب بما يعرف بالتصلب المتعدد إم إس، وهو مرض يهاجم الجهاز العصبي، ويسبب مشاكل جسيمة في الاتصال بين الدماغ وبقية الجسم، وله أعراض ليست جيدة بالمرة، فلا داعي للحديث عنها"!

كم كان هذا لطيفًا! وكأن الذي قاله أولًا هو المحتمل، والأعراض فقط هي التي لا يحتمل التحدث عنها!

لا أدري ماذا أصاب الأطباء؟ كنا نراهم دائمًا في السينما يبتسمون في وجه المريض برقة، ويخبرونه بلهجة صادقة أنه على ما يرام، وليس ثمّ ما يستدعي الخوف، وأنه مع العلاج سيصير أفضل، وسوف يعيش مائة عام قادمة، وذلك ليبثوا الأمل والقوة والصلابة في نفسه، ثم يفصحون عن الحقيقة لذويه كي يتخذوا اللازم، دون أن يعلم المريض بشيء، أو يتولون هم مهمة إبلاغه الحقيقة!

لكن هذا الأحمق يخبرني بكل ثقة وثبات: أني مصاب بمرض خطير، سيكون من الصعب – بل من المستحيل – علاجه، وكل ما يقدرون عليه هو التقليل من حدة أعراضه الفتاكة! وأن هذا المرض ليس له علاج معروف! وكل ما يمكننا عمله الآن هو محاولة التصدي لتلك الأعراض التي لن نتحدث عنها، للحد من خطورتها وآثارها!

المشكلة أن زوجتي وأبنائي هم من اختاروا هذا الطبيب بالذات، وكانت زوجتي تجلس بجانبي ونحن نتلقى تلك البشارات الطيبة منه، حينها نظرت إليها متوسلًا كي ننهض ونرحل من هنا ولا نعود، ولنبحث عن طبيب آخر، لكنها حتى لم تكن تنظر تجاهي، وكانت شاخصة بكامل حواسها لذلك الطبيب الوغد!

إلامَ تنظر يا سيدي؟ آه.. إلى يدي، إنها ترتعد بالفعل، لكن لا يذهب عقلك بعيدًا، هذا ليس بسبب التصلب المتعدد، كل ما في الأمر أنني سهرت أمام التلفاز طويلًا، ثم

اتكأت على ذراعي ونمت، فأصابها التنميل، سوف يتلاشى هذا قريبًا اطمئن، واطمئن كذلك إلى أن التصلب المتعدد ليس من الأمراض المعدية، أنت في أمان اطمئن.

هل تؤمن بالقدر يا سيدي؟ أعتقد ذلك، أنا أيضًا مؤمن به تمام الإيمان، وإن كنت لا أعرف كيف ينبغي علينا أن نؤمن به، قرأت بعض المناظرات والتنظيرات التي طرحها المعتزلة والجهمية والسلفية، لكني لم أستوعب منها شيئًا، فقررت أن أعتنق إيمان العجائز، فقط أومن، بلا أية تفاصيل أخرى، لقد تربينا في طفولتنا وصبانا على أن كل شيء قسمة ونصيب، فليكن الأمر كذلك بلا كيف، لذا تراني أتقبل مصيري بثبات، كما أني أعلم أني سأفقد حواسي تباعًا، وكذا القدرة على الحركة، ومن ثم – في الغالب – لن أشعر بشيء بعدها، وسأموت دون أن أرى، أو أسمع، أو أتكلم، الأمر ليس بهذا السوء كما ترى.

جلستنا هذه أيضًا قدر، كان مقدرًا أن تجيء أنت إلى هنا سعيًا وراء المعرفة، وكان مقدرًا أن تلاحظني، وأن تتوسم فيّ المعرفة بالأشياء التي تنشدها، وبما أن الأمر كذلك لنعتبرها إشارة قدرية، القدر أرادك أن تعرف من خلالي، ولسوف أمنحك هذه المعرفة، لكن بشرط: أن تستمع إليّ بصبر، ولا تتعجل شيئًا قبل أن أخبرك به، لنكن معًا كما كان الخضر مع موسى عليهما السلام، ولا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا، واعلم أنك لو تعجلت: سيكون الفراق بيني وبينك!

اتفقنا؟

***

الفصل الثاني

سيوف.. نسور.. نجوم.. أشرطة..

منذ أن وطئت قدماه هذا المكان المرعب، وأجلسوه في هذه الطرقة شبه الواسعة، وهو لا يزال محاطًا بالسيوف والنسور والنجوم والأشرطة، لا تمض عشر ثوانٍ دون أن تمر أمامه نجوم ونسور وسيوف وأشرطة، وكل من يمر لا بد أن يرسل إليه نظرة ما، تختلف من شخص لآخر، بعضها مرتاب، وبعض حانق، وبعضها مبغض، وبعضها غير مكترث، وبعضها خاوٍ من أي تعبير!

قلبه يزداد انقباضًا مع الوقت، هو محامٍ، ومع ذلك لم يعتد ارتياد هذه الأماكن أبدًا، بل عادة يفر منها ومن مرتاديها.. لديه صديق يدعى (جمال)، معاون شرطة بالمباحث، كان يوفر عليه عبء الاحتكاك بالشرطة، إذا احتاج لأي شيء من أقسام الشرطة كان يلجأ إليه، وكان (جمال) يوفر له ما يحتاجه وبدون مقابل، فهو صديق الطفولة والصبا والشباب، وسيظل كلاهما صديقين حتى يغادر أحدهما إلى العالم الآخر..

لكن الآن (جمال) ليس معه، ولن يكون معه بعد اليوم، هو في حال أسوأ من حاله، لكنه بحاجة ماسة إلى (جمال) الآن، كم مضى عليه من الوقت وهو قابع هنا ينتظر؟

هو يمقت الانتظار بشدة، رغم أن مهنته كلها قائمة على الانتظار، انتظار الزبائن، انتظار الجلسات، انتظار النطق بالأحكام، انتظار إعلانات القضايا، انتظار الأتعاب، انتظار.. انتظار.. انتظار.. ومع ذلك لا يزال يمقت الانتظار بشدة، وها هو ينتظر منذ أكثر من ساعة، ولا يستطيع عمل شيء، لا يستطيع حتى الرحيل، بعد أن جاء بقدميه إلى هنا، ولم يكن لديه خيار سوى المجيء..

نسور.. سيوف.. نجوم.. أشرطة.. نظرات خاوية، نظرات مرتابة، نظرات حانقة، نظرات مبغضة، نظرات غير مكترثة! متى ينتهي كل هذا؟

أخذ يتحسس علب السجائر بجيبه، هو لا يدخن، وكذلك (محمود) لا يفعل، حسب معرفته الطويلة به، ومع ذلك جلبها إليه، فقد اتضح أنه شخص آخر غير الذي كانوا يعرفونه، وربما كان هذا الشخص الآخر – الذي ما كانوا يعرفونه – يدخن! من يدري؟!

لكن نفسه تحدثه أن يخرج سيجارة من إحدى العلب ويشعلها ليسلي نفسه في هذا الانتظار المقبض، لقد كان يدخن في الماضي، لكنه توقف عن التدخين منذ ما يزيد على عشرة أعوام تقريبًا، فهل يعود إليه الآن؟ يجب أن يطرد الفكرة عن رأسه قبل أن يضعف ويفعلها، ويضيع جهد سبعة أعوام هباء..

إلى متى سينتظر هنا؟!

قرقعة الأحذية على البلاط القديم مزعجة، بل مرعبة، والقرقعة لا تتوقف، لأنهم لا يتوقفون عن الحركة، كل شيء في هذا المكان المرعب يتحرك حركة دائبة، هو الوحيد القابع في مكانه بسكون لا يتحرك، ولا يجرؤ حتى على التململ، هو محامٍ، ويجب عليه أن يتماسك.. لكن حركتهم الدائبة أمامه تثير قلقله بشدة، فضلًا عن تلك النظرات التي يلقونها عليه جيئة وذهابًا، نظرات خاوية، نظرات مرتابة، نظرات حانقة، نظرات مبغضة، نظرات غير مكترثة! نجوم.. سيوف.. نسور.. أشرطة.. متى ينتهي كل هذا؟!

– "أستاذ (ربيع) المحامي؟"

– "نعم.."

– "تعالَ معي.."

أخيرًا جاء الفرج.. الجندي يشير إليه كي يتبعه، لم يحاول استنباط نظرته، أو نبرة صوته، المهم أن انتظاره قد انتهى الآن، وسيمضي إلى ما جاء من أجله، سار خلف الجندي بنظرات متعثرة مرتبكة، يجب أن يتماسك.. الأمر لن يطول بإذن الله، فقط سيؤدي واجب الصداقة ويذهب من هنا ولا يعود، وإن كان ثمة لقاءات أخرى فلتكن بالمحكمة، أو بالسجن، أو بأي مكان آخر، على الأقل هو باعتباره محاميًا يستريح

للمحاكم أكثر من مديريات الأمن وأقسام الشرطة، لولا واجب الصداقة، ولولا الجدة التي لاذت به وهي مذعورة لما أتى إلى هنا من الأساس!

فجأة التفت الجندي إليه، بعد أن أبطأ حركته ليكون بجواره لا أمامه، أحس بالفزع من قبل حتى أن يطالع تلك النظرات في عينيه، قال له بصوت جاف:-

- "هل هو صديقك؟"

سؤال مرعب، لا يستطيع الإجابة عليه بالإيجاب، وكذلك ضميره لا يسمح لي بالنفي، بحث عن حل وسط:-

- "جيران.. نعيش بنفس المنطقة.."

جيد أنه اهتدى لهذه الإجابة سريعًا، وإلا فإن صمته سيثير الريبة تجاهه أكثر، نظر إلى الجندي بطرف عينيه ليرى رد فعله إزاء تلك الإجابة، فرآه يهز رأسه بغير معنى، وواصل كلاهما المسير، لكن الجندي عاد يقول بعد برهة:-

- "كيف فعل كل هذا؟"

يا لك من أبله! قالها في نفسه بالطبع: وهل تظن أني أعرف الجواب؟ لا أحد في العالم يعرف، أنا صدمت وتفاجأت أكثر من أي شخص آخر، ورغم الأدلة القاطعة التي تدينه ما زلت أشك في الأمر، ولا أصدق أنه هو من فعل كل هذا..

- "الله أعلم.."

هذه الإجابة الوحيدة التي كانت لديه بالفعل.. لحسن الحظ أن الجندي توقف عن طرح الأسئلة، كما توقف أيضًا أمام باب تلك الحجرة، والتفت إليه مرة أخرى قائلًا:-

- "انتظر هنا بالداخل.. سنحضره إليك بعد قليل!"

ابتلع الأستاذ (ربيع) ريقه بصعوبة، بينما فتح الجندي له الباب وأشار له بالدخول، فدخل بخطوات متثاقلة، ثمة مكتب ومقعد خلف المكتب، ومقعدان أمام المكتب، ومقعدان آخران في زاوية من الحجرة، انتبه لإغلاق الباب خلفه بعد أن صار بالداخل، الحجرة خاوية سوى منه هو، يفترض أن يجلس وينتظر، لكنه كان ضاق بالجلوس

والانتظار، مضى عليه أكثر من ساعة هناك وهو جالس ينتظر، اختار أن يظل واقفًا، ورأى الوقوف في تلك اللحظة أكثر راحة له..

مرة أخرى تحسس علب السجائر بجيبه، أتاه ذلك الهاجس مجددًا، وأقوى من ذي قبل: إنه بحاجة ماسة للتدخين الآن!

***

(ربيع) محامٍ شاب، في منتصف العقد الرابع من العمر تقريبًا، هو شاب متوسط في كل شيء، في الطول، في الوزن، في الهيئة والشكل، شعره الأسود الأكرث بدأت تتخلله شعيرات بيضاء متناثرة هنا وهناك، ليس وسيمًا لكن ملامحه مقبولة إلى حد ما، وليس أنيقًا في ملابسه لكنه ليس رث الهيئة كذلك، كما قلت لك إنه متوسط في كل شيء.

(ربيع) ولد في هذا الحي، والده كان موظفًا بالحكومة، ومات قبل أن يبلغ سن التقاعد، مخلفًا وراءه زوجة وثلاثة أبناء، كان (ربيع) أصغرهم، ولم يكن متفوقًا في دراسته، لكنه كذلك لم يكن من التلاميذ المتعثرين، لقد كان مستواه متوسطًا كما هو حاله في كل شيء آخر، حين اجتاز الثانوية العامة بمجموع متوسط كانت أمامه خيارات عدة، لكنه اختار الحقوق تحديدًا لسبب غير معروف، هو بشكل عام ليس بالشخص الطموح، وليست لديه أحلام أو تطلعات كبيرة، تخرج في الجامعة والتحق بمكتب محامٍ كبير ليتدرب، واكتشف منذ الأشهر الأولى بالعمل أن المحاماة مهنة لا تحتاج إلى نبوغ كبير، أو دراية فائقة، وأن المناظرات والمساجلات القضائية التي يراها بالسينما غير موجودة بالواقع إلا في القضايا الكبرى التي تمس الرأي العام فحسب، كما اكتشف أنها مهنة تعتمد على اسم المحامي وسمعته أكثر من مهارته وشطارته.

استمر في مكتب المحامي الكبير لسنوات، قبل أن يتخذ القرار الشجاع بالانفصال والعمل لحسابه، وذلك بعد أن أصبحت لديه القناعة بأنه عرف دهاليز المهنة، وأصبح لديه القدرة على ممارستها منفردًا، وبالفعل استأجر مكتبًا صغيرًا بالحي، وعلق عليه لافتة كبيرة تحمل اسمه ومهنته مصحوبة باختصاصاته مفصلة، وحصل على بعض القضايا

الصغيرة لكن بمعدل ضئيل لا يكفي العائد منه حتى دفع إيجار المكتب، ومرت بعض الأسابيع والشهور دون تحسن، مما اضطره لغلق المكتب والتحق بالعمل في متجر كبير لأدوات التنظيف ومستحضرات التجميل.

لكن الحظ ابتسم له بعد فترة ليست بالطويلة، حين التقى بواحدة من الزبائن الثرثارات تحادث رفيقتها عن رغبتها في الطلاق وإعلان الحرب على زوجها، فعرض عليها المساعدة بصفته محاميًا، وهي وافقت، ونجح في الحصول على حكم طلاق للضرر، مع الاحتفاظ بكامل حقوقها الزوجية، وكانت هذه القضية فاتحة خير عليه، إذ توالت عليه بعد ذلك قضايا النفقة والخلع والطلاق للضرر، وفي خلال فترة وجيزة أصبح معروفًا في الحي كله وفي الأحياء المجاورة أيضًا بلقب (محامي المطلقات).

وهكذا عاد مجددًا لاستئجار مكتب، وتعليق ذات اللافتة القديمة، وأصبح مكتبه لا يخلو من النساء الموتورات الراغبات في إعلان الحرب على الرجال، ووجدن أن القانون يقف في صالحهن دائمًا، بما يعني أنه سلاح فتاك للمرأة بوسعها الاستعانة به للفتك بالرجل دون أن تبذل كثير جهد.

محامي مطلقات! وما الضير من هذا؟ لم يكن (ربيع) منزعجًا من هذه السيرة على الإطلاق، بالعكس، في مهنة كهذه التي يمتهنها، وفي حي كهذا الذي يقطنه، عليه إما أن أتعامل مع متعاطي المخدرات وصغار مروجيها، أو مع اللصوص والبلطجية، أو مع المطلقات، وأظن الأمر لايحتاج إلى تفكير أو تردد، المطلقات هن الخيار الأفضل والأمثل من نواحي عدة، أهمها:

أن قضاياهن مضمونة، فلا توجد أدنى نسبة لخسارة هذه القضايا على الإطلاق! فلن يحكم القاضي أبدًا بحرمان مطلقة عائلة من نفقة، أو أجر حضانة ومسكن، وغير ذلك.

ويا ويل الرجل الذي يطلق امرأة وقد أنجب منها طفلًا أو أكثر، سيظل ملاحقًا منهم بقية حياته!

ثانيًا: إن التعامل مع المطلقات مضمون الأتعاب، فهو الذي يرفع الدعوى، وهو الذي يحصل على الحكم، كما أنه يحصل أيضًا على توكيل منها بصرف الأموال المستحقة، ويقوم بخصم نصيبه منها قبل أن يسلمها لموكلته، أما مع اللصوص ومتعاطي المخدرات ومروجيها الصغار والبلطجية فلا شيء مضمون على الإطلاق، وهم على استعداد لقتل المحامي وذبحه، مقابل التخلص من أتعابه!

طبعًا أضف إلى ذلك العامل النفسي، فانشراح الصدر الذي يجده مع هذا النوع من الزبائن بالتأكيد لن يجده وهو يتعامل مع لص، أو بلطجي، أو متعاطي مخدرات، وقد اكتشف (ربيع) خلال سنوات عمله هذه أن معظم المطلقات جميلات، بل فاتنات، مع أنه يفترض العكس، واللاتي يخلعن أزواجهن أكثر جمالًا وفتنة!

(جمال) صديقه يحسده على هذه المهنة، يقول له:-

- "نحن نتعامل مع الحلاليف، وأنت تتعامل مع زوجاتهم.. حظوظ!"

إن مهنة (جمال) - باعتباره معاون شرطة بالمباحث - تجعله دائم الاحتكاك باللصوص، والقتلة، والبلطجية، وعتاة الإجرام، وهذا ما جعل عينيه ثاقبتين كالصقر، عينين تليقان برجل مباحث، و(ربيع) مهنته كمحامٍ تجعله دائمًا بحاجة إلى مساعدة (جمال)، خاصة في خطاب التحريات عن دخل الزوج الذي يجب أن يقدم للمحكمة مع كل قضية، و(جمال) يقدم هذه الخدمة لـ (ربيع) دون مقابل، وإن كان هذا لا ينفي أن (ربيع) يكافئه ببعض الهدايا من حين لآخر، من باب التقدير والامتنان، لكن المؤكد أن صداقتهما كانت خالصة، وخالية من المصالح المادية.

كلما التقيا أسلمه (ربيع) خطاب تحريات يخص إحدى قضاياه، فيتساءل (جمال) في سأم:-

- "خطاب تحريات آخر؟!"

فيجيب (ربيع) بنفس السأم:-

- "ماذا سيكون غير ذلك؟"

في قضايا النفقة وما شاكلها تطلب المحكمة تحريات عن مهنة المطلق ودخله الشهري، إذا كان المطلق موظفًا بالقطاع العام، أو حتى إحدى الشركات الخاصة، فالأمر بسيط، حيث يتوجه (ربيع) إلى الإدارة المالية التابع لها الزوج أو المطلق، ويطالب بنسخة موثقة لمفردات راتبه، أما إن كان الزوج أو المطلق يعمل عملًا حرًا، فيضطر (ربيع) إلى اللجوء إلى المباحث، أي إلى صديقه الحميم (جمال)، الذي ينهي له الموضوع حسبما يريد، فقط يذكر له (ربيع) مهنة الزوج أو المطلق، حتى لو لم تكن هي مهنته حقيقة، و(جمال) هو الذي يضع قيمة الراتب الشهري من نفسه، ثم يقوم بتوثيق الخطاب وإرساله إلى المحكمة بهدوء، والقاضي يحدد النفقة المطلوبة بناء على ذلك الخطاب.

إن القانون ينص على حبس الزوج أو المطلق شهرًا مع النفاذ في حالة عجزه عن دفع مستحقات النفقة مهما كانت قيمتها، و(ربيع) تعلم أن يستفيد من هذا الأمر، حيث يقوم بتوزيع المدة على عدة دعاوى حبس، بمعنى: إذا كان المطلق تخلف عن دفع قيمة عام كامل أو أكثر عن الدفع، فإن (ربيع) يقاضيه عن كل ستة أشهر على حدة، لأنه في كل الأحوال سيحبس شهرًا واحدًا مهما كانت المدة التي تأخر عن دفع مستحقاتها، وهذه الحيلة ستجعله يعاقب أكثر من مرة بالحبس على نفس المدة.

في الفترة الأخيرة لم يعد (ربيع) يقابل (جمال) كثيرًا، فقد كان (جمال) يقضي معظم اليوم في العمل، أكثر من المعتاد، حتى التقاه (ربيع) ذات مرة وسأله عن سر اختفائه، فقال له (جمال) بجدية حانقة:-

- "نحن في حالة أشبه بالطوارئ.. عصابة جديدة، لقد ضربوا ضربتهم الرابعة البارحة بعد منتصف الليل، لا نعرف أي شيء عنهم، يضربون ضربتهم ويختفون كالبرق!"

لم يسترعِ كلام (جمال) اهتمام (ربيع) بأية حال، فقد كان يعرف أنها مجرد مقدمة ليتحدث (جمال) بعدها عن إحدى بطولاته، لذا قرر أن يتظاهر بالاكتراث، واستفسر عن الأمر، على الأقل (جمال) يستحق الحصول على هذه المتعة نظير خدماته وصداقتنا..

- "ماذا يفعلون بالضبط؟"

أجاب (جمال):-

- "يسطون على المتاجر المتوسطة، ينهبون ما فيها ويرحلون، طبعًا معهم مسدسات وبنادق آلية يهددون بها أصحاب المتاجر والعاملين بها، ولا يتورعون عن ضربهم لو حالوا المقاومة، لكنهم حتى الآن لم يقتلوا أحدًا، ولم يؤذوا أحدًا سوى بالضرب اليدوي، لكنهم ينهبون كل شيء ويختفون بسرعة!"

ما زال (ربيع) لا يكترث بهذا، لكنه واصل التظاهر بالاكتراث وتساءل:-

- "يفترض أن هذه المتاجر تضع كاميرات، ألم تلتقط صورهم؟"

أجاب (جمال) بضيق:-

- "يضعون أقنعة كتلك التي نراها في الأفلام الأجنبية، (باتمان)، (سبايدرمان)، لدينا صور عديدة، لكن بلا ملامح!"

ألقى (ربيع) سؤاله الأخير قبل نفاد باقة التظاهر:-

- "ولا يتركون بصمات؟"

أجاب (جمال) بنفس الضيق:-

- "يلبسون قفازات طبية، لا شيء يقود إليهم على الإطلاق، لقد قبضنا على كل المشتبه بهم، واستجوبناهم بعنف، ولم نصل إلى أي شيء!"

استطرد بحنق:-

- "كما أنه لا يوجد أي رابط بين الضحايا، الضربات الأربعة في أماكن متباعدة، آخرها محل مصوغات، بدءوا يصيبوننا بالجنون، لكننا حتمًا سنقبض عليهم!!"

أدرك (ربيع) حينها أنه قد تظاهر بالاكتراث بما يكفي، وقرر أن يدخل في الموضوع الذي يكترث له حقيقة لا تصنعًا، مد يده إلى (جمال) بتلك الورقة قائلًا:-

- "خطاب تحريات جديد، الزوج سائق معدات ثقيلة، ضع الرقم الذي يحلو لك، وأنجز لي هذا ثم تفرغ لمطاردة عصابات العالم كله كما تشاء!!"

***

الفصل الثالث

عرفت (سليم) قبل عشرة أعوام، هنا في هذا الحي، وفي هذا المقهى تحديدًا..

من (سليم)؟ سؤال خاطئ يا سيدي، كان عليك أن تسأل: من (مراد عز الدين) لا (سليم)، على أية حال أنصت إليّ وستعرف.

(مراد عز الدين).. ألم تسمع عنه؟ كل مصر تعرفه، ألا تعرفه أنت؟ آها.. هل تذكرته الآن؟ نعم هو (مراد عز الدين) الذي تعرفه أنت، ويعرفه الجميع.. ما علاقة (مراد عز الدين) بـ (سليم)، هذا ما سوف أحكيه لك لو أنك تحليت بقليل من الصبر!

في تلك الليلة كان (مراد عز الدين) ليس على ما يرام! لكن متى كان (مراد عز الدين) على ما يرام في أية ليلة من الليالي؟!

تلك اللوحة المعلقة على الجدار لا تزال تستفز (سليم) بالرغم من أنه يراها للمرة الألف إن لم يكن أكثر، في الوقع هو يراها بشكل شبه يومي في ذات المكان، وذات الجدار، طيلة ثلاث سنوات، منذ أن جاء بها (مراد عز الدين) من أحد أسفاره بالخارج!

اللوحة عبارة عن ساعات، ساعات مطوية كأنها قطع ثياب، منها ساعة مطوية معلقة على فرع شجرة يابسة، وساعة أخرى مطوية فوق شيء يشبه المصطبة الحجرية، وساعة ثالثة ملقاة فوق نفس المصطبة، لكن تفاصيلها ممسوحة وفوقها يجتمع ما يشبه النمل وقد التهم خطوطها وتفاصيلها، وساعة رابعة مطوية وملقاة فوق شيء ما ملقى على الأرض لا يدري سليم كنهه! بالطبع لم يكن (سليم) يعرف أنها نسخة مقلدة للوحة (إصرار الذاكرة) لـ (سلفادور دالي)، اشتراها (مراد عز الدين) في أحد أسفاره، كعادته في شراء كل شيء يبدو مختلفًا أو غير معتاد.

كان (سليم) يتساءل في المرات الأولى كلما شاهد تلك اللوحة: لماذا كل هذه الساعات؟ ولماذا هي مطوية مثل قطع الثياب؟ ولم يصل إلى جواب، حتى اعتاد الأمر

وتلاشى من ذهنه أي تساؤل، إلا أن اللوحة لا زالت تستفزه، لدرجة أنه يتحاشى النظر إليها!

(مراد عز الدين) ليس على ما يرام! لكن متى كان (مراد عز الدين) على ما يرام؟! لا.. هذه المرة تختلف، عرف (سليم) ذلك جيدًا، وإن كان لا يدري وجه الاختلاف بالتحديد!

ربما كانت نظراته! أكيد ليست هي تلك النظرات الزائغة التي تبدو في عينيه حين يجرع زجاجة الـ (مارتين بيلرز)، أو حين يبتلع أقراص الـ (ليريكا ٣٠٠)، لكنه واثق من أنه لم يتناول شيئًا منهما، على الأقل خلال الساعات الثلاث الماضية!

لمَ كان (سليم) واثقًا هكذا؟ لأنه – ببساطة – هو من يحضر له هذه الأشياء!

حتى الشحوب المهيمن على وجه (مراد عز الدين) ليس هو ذاك الشحوب الذي يكسو وجهه حين يسهر أكثر من المعتاد، أو حين ينام أكثر من المعتاد، أو بعد انتهائه من ليلة حمراء مع إحدى العاهرات اللاتي يرافقهن.. في الواقع هن لسن عاهرات، أكثرهن سيدات مجتمع فضليات، ومتزوجات من علية القوم، لكنه يجيد الحصول عليهن ببراعة غريبة، والانطلاق بهن إلى شقة أكتوبر التي لا يعلم عنها أحد شيئًا سوى (سليم).

(مراد عز الدين) ليس على ما يرام مؤخرًا، لكن هذه الليلة بالذات..... لا يعرف! شيء ما ليس على ما يرام، أبعد من نظرات العينين وشحوب الوجه، شيء ما غير معتاد بالمرة.

كان (سليم) هناك تلك الليلة، حين ناداه سيده:–

– "(سليم).."

وكان ينتظر هذا النداء منذ ساعتين على الأقل، لذا على الفور كان عند سيده.. في الغالب سيطلب زجاجة من مشروبه المفضل، أو يطالبه بالبحث عن شريط الليريكا، أو إحضار علبة السيجار الفاخر، لكن المفاجأة أنه .....!

– "فنجان قهوة بسرعة!"

لا يملك (سليم) سوى أن يهز رأسه ويبادر بالتنفيذ، لقد مضى عليه سبع سنوات هنا، وصار يعرف جيدًا متى يسكت، ومتى يتكلم، وفي كل الأحوال عليه أن يستمع.

عن نفسي لا أستطيع أن أحدد مسمى محددًا لوظيفة (سليم) لدى سيده (مراد عز الدين)، البعض يقول: ساعٍ أو فراش، والبعض يقول: خادم خصوصي، وسمع (سليم) بأذنيه بعض الخبثاء في إحدى المناسبات يتحدثون عنه واصفين إياه بالـ (أغا)، واستغرق وقتًا طويلًا حتى فهم معناها، لكن (سليم) وحده من يعرف أن وظيفته لدى (مراد عز الدين) تتخطى كل هذا، ربما كانت وظيفته – كما وصفه (مراد) نفسه –: د. (ويلسون)!

من د. (ويلسون)؟ لم يعرف (سليم) الإجابة إلا بعد عدة أعوام، حين شاهد بالصدفة ذلك الفيلم الأجنبي، الذي يحكي عن رجل نجا من سقوط طائرته بالمحيط، ليستقر على جزيرة مهجورة بمفرده طيلة أربع سنوات، وكانت تلك الكرة هي أنيسه الوحيد، فرسم عليها بدمائه ملامح رجل، وسماها د. (ويلسون)، وطفق يتحدث معها طوال الوقت، لدرجة أنه كان يتشاجر معها أحيانًا، وجزع أشد الجزع حين فقدها بالمحيط!

إن (سليم) بالنسبة للسيد (مراد عز الدين) فرّاشه الذي يعد له قهوته، ويحضر له خمره وأقراصه، ثم يتحول إلى سائق يقله إلى المواضع الخاصة التي لا يريد لأحد أن يعلم بشأنها، كشقة أكتوبر مثلًا التي يقضي بها لياليه الحمراء، وبالتالي يكون فعلًا (أغا) له، وفوق ذلك كله: هو د. (ويلسون) الذي يستمع إلى هذيانه، وقد يشاركه فيه، دون أن يخشى غدره وخيانته.

لا أحد يدري حتى الآن: لمَ منح (مراد عز الدين) هذا الفتى البائس بالذات كل هذه الثقة دون سواه! لكن (مراد) يعرف – بل الجميع يعرف — أن (سليم) يستحقها عن جدارة، فلم يخنه مطلقًا طيلة الأعوام السبعة التي عمل فيها معه، ولا فكر في خيانته مستقبلًا على الإطلاق.

(مراد عز الدين) ليس على ما يرام هذه الليلة، لكنه يريد قهوة، وفي أقل من خمس دقائق كانت القهوة في يده، ووقف (سليم) يراقبه في صمت وهو يشعل السيجار الغليظ،

وينفث دخانه ببطء، ويرتشف القهوة بتؤدة، هذا كله غريب.. غريب.. بدا لـ (سليم) وكأن سيده ينتظر شيئًا، ويحاول إخفاء ترقبه وقلقه.

– "ناولني ذاك الصندوق هناك.."

وأشار إلى ذلك الرف، إنه صندوق صغير لكنه أنيق ومزخرف بعناية، ماذا به يا ترى؟ بالتأكيد لن يسأل، فقط سيضع الصندوق بين يديه، ويتراجع بضع خطوات بانتظار أمر جديد.

وضع (مراد) السيجار على حافة المطفأة، وأمسك بالصندوق، وفتحه برفق، ما هذا؟ يا إلهي! إنه مسدس.. لأول مرة يراه!!

– "(سيج ساور ٢٢٦).."

كذا قالها السيد (مراد) وهو يخرج المسدس من الصندوق، المسدس صغير جدًا، ذو مقبض فضي، وماسورته أيضًا لونها فضي، أما الجزء الذي أسفل الماسورة – الذي فيه موضع الزناد – فلونه أسود، كان (مراد) ينظر إلى المسدس وعيناه تلمعان بشكل غريب، وازداد هلع (سليم) وهو يراه يمسك بمقبض المسدس، وإصبعه تمتد إلى الزناد، وسمعه يقول ببطء:–

– "وزنه حوالي (٨٠٠) جرامًا، سرعة رصاصته حوالي (٣٥٠) مترًا في الثانية، لكن مدى التصويب لا يتعدى الخمسين مترًا، خزانته تتسع لخمس عشرة رصاصة.."

برقت عيناه أكثر وهو يضيف:–

– "إنه مسدس مثالي!"

وسقط قلب (سليم) في قدميه حقيقة وهو يرى (مراد عز الدين) يصوب المسدس نحوه، ولوهلة ظن أنه سيطلق النار عليه! وهتف بداخله: يا إلهي! ماذا فعلت ليقتلني؟!

المشكلة أن (سليم) يعرف جيدًا – من طول مرافقته إياه – أن (مراد عز الدين) ليس بحاجة لأن يقترف أحدهم ذنبًا حتى يعاقبه أشد العقاب، لكن لم يخطر على باله مطلقًا أنه سيعاقبه هو بالذات!

واستراحت أعصاب (سليم) وهو يرى (مراد) يخفض المسدس لأسفل بعد لحظات، ويمد يده الأخرى لالتقاط السيجار، ويعيد امتصاص الدخان منه وينفثه في الهواء، ثم قال وهو ينظر إلى الفراغ كأنه يلقي محاضرة ما:-

- "هناك نوع آخر من إصدار نفس الشركة، (سيج ساور إم ١١)، أصغر حجمًا من هذا، ووزنه لا يتعدى (٤٠٠) جرامًا، تخيل؟ وسعته ثلاث عشرة رصاصة، لسوء الحظ لم أعثر عليه، وكنت أنوى في سفري الأخير إلى لندن البحث عنه، لكني نسيت الأمر بكل أسف.."

وأضاف وهو ينظر إليه:-

- "لا تنس يا (سليم) أن تذكرني به في سفري القادم!"

لا بأس.. هذا يعني أنه لن يقتله حتى سفره القادم، ما لم يجن قبلها، أو ينسى الأمر، ويفعلها قبل ذلك، ماذا يفعل (سليم) الآن؟

ساد الصمت لعدة دقائق، قضاها (مراد) في نفث الدخان، وارتشاف القهوة، والتلويح بالمسدس، وقضاها (سليم) مرتجفًا منتظرًا أي جديد، مع التساؤل: إلام سيفضي هذا الموقف؟ وأخيرًا رفع السيد (مراد) رأسه، وصوب بصره مجددًا تجاه (سليم) وقال:-

- "أين (ناهد)؟"

في الواقع (سليم) لم يكن يعرف، لكن ليس من المستحب أبدًا أن يقول أحد لـ (مراد عز الدين) حين يسأله أي سؤال: لا أعرفه، فهو يبغض هذه الإجابة بالذات، ويغضب لها بشدة، وليس من مصلحة (سليم) أن يغضبه في هذا الموقف تحديدًا، خاصة وهو يمسك بهذه المسدس المرعب رغم صغره وأناقته.

- "أعتقد أنها بالخارج"

نفث (مراد) كمية كبيرة من الدخان، ثم سأل مجددًا:-

- "وأين (نورا)؟"

ابتلع (سليم) ريقه بصعوبة، وأجاب:-

- "أعتقد أنها بالخارج أيضًا"

عاد (مراد) يسأله بنبرة جافة:-

- "وهو؟ أين هو؟"

لم يعرف (سليم) من هو بالتحديد من أول وهلة، لكنه خمن أنه يقصد (مصطفى) ابنه، فلم يبق فرد سواه من الأسرة لم يسأل عنه، وهذا أيضًا لا يعرف أين هو.

- "رأيته خارجًا منذ ساعتين تقريبًا، أعتقد لم يعد بعد من الخارج.."

قال (مراد) بنبرة غريبة:-

- "بالتأكيد لم يعد."

ثم أضاف بذات النبرة الغريبة:-

- "ولن يعود!"

لم يقل (سليم) شيئًا، لأنه لا يفهم ماذا يقصد، وحتى لو كان يفهم لن يتحدث في هذا الموقف.

مضى الوقت بطيئًا و(سليم) لا يزال يترقب التالي مرتجفًا، وتناول (مراد) فنجان القهوة، لكنه اكتشف أنه فرغ ما به، ولم يبق إلا البن الكثيف المترسب بقاعه، تساءل (سليم) في نفسه: هل سيطلب فنجانًا آخر؟ هو عادة يطلب هذا حين يكون سكران ويريد أن يفيق من السُكر، فهل هو سكران الآن؟ إنه في حالة أسوأ في اعتقاده.

رن الهاتف بجواره بغتة، التمعت عينا (مراد) على نحو أغرب، ورفع الهاتف إلى أذنه وفتح الخط دون أن يتحدث، وبرق وجهه كله وهو يستمع، قبل أن يقول:-

- "سأكون هناك خلال ساعة واحدة.."

وأنهى المحادثة، والتفت إلى (سليم) قائلًا:-

- "خذ مفتاح السيارة من (رجائي)، أنت ستقلني إلى هناك"

تساءل (سليم): هل يا ترى هو في طريقه إلى سهرة حمراء أخرى؟ كان هناك البارحة مع تلك المدعوة (سوزي)، ويجهل (سليم) اسمها الأصلي! مع من سيكون يا ترى هذه المرة؟ بالتأكيد هو سؤال سيحتفظ به لنفسه، ولن يهتم كثيرًا بإجابته.

السؤال الذي يهم (سليم) حقًا: لماذا دس المسدس تحت ثيابه؟ لماذا سيأخذ المسدس معه إلى المكان الذي يريده أن يقله إليه؟ وما الذي ينوي فعله بالضبط؟

لكن حتى هذا السؤال – وهو الذي يهمه بشدة – لا يملك (سليم) إلا أن يحتفظ به لنفسه!

***

(سليم) ليس من أبناء هذا الحي، لقد ولد وترعرع في حيٍّ آخر أشد فقرًا من هذا الحي، واكتملت المأساة بوفاة الأب مخلفًا وراءه طفلًا ذكرًا وحيدًا فوق ثلاث بنات، ليتحمل (سليم) المسئولية وهو لا يزال طفلًا غضًا، لذا يمكنك أن تتخيل نوعية المهن والحرف التي عمل بها في صباه، من بيع المناديل الورقية في إشارات المرور ومواقف السيارات، إلى العمل (بلية) ببعض الورش الصغيرة ليتلقى السباب والصفعات والبصاق من الأوسطى المعلم طوال اليوم، إلى الوقوف في محطات الوقود لتموين السيارات والدراجات النارية بالبنزين والسولار، وهكذا.

وبالرغم من ذلك كانت أمه لا تزال تعتقد أن التعليم هو طوق النجاة الذي سينتشلهم من مخرطة الفقر، فأصرت على أن يظل الولد بالمدرسة، ويدخل الثانوية العامة على أمل أن يصل إلى أعلى المقامات، لكن المجموع الضئيل الذي حققه الفتى بالكاد سمح له بالالتحاق بمعهد الخدمة الاجتماعية فوق المتوسط، إلا أن الحظ ابتسم له بعض الشيء ليحصل على وظيفة أخصائي اجتماعي بإحدى المدارس، وهي الوظيفة التي كفلت له راتبًا ضئيلًا لا يفي بمتطلبات نفسه فضلًا عن الأسرة التي يعولها، لكن يكفي أنه ثابت ومنتظم، ويضمن له معاشًا ضئيلًا بعد عمر طويل.

واستمر (سليم) في امتهان العديد من المهن الأخرى بالفترة المسائية، من أجل الوفاء بمتطلبات شقيقاته اللاتي تزوجن واحدة تلو الأخرى، ونسي (سليم) نفسه في غضون ذلك، ليصل إلى العقد الخامس من العمر وهو لا يزال أعزب، وانتهى به الحال ليعمل بالمقهى الذي نجلس به الآن أنت وأنا يا سيدي، ومن هنا بدأت علاقتي به.

أنت تعرف أني زبون دائم بهذا المقهى وبعض المقاهي القريبة، كما أني شخص اجتماعي يحب محادثة الآخرين، وقد تم التعارف بيني وبين (سليم) بسرعة، وصرت أعرف كل شيء عن حياته وأسرته، والفتى – إن جاز تلقيبه بذلك – كان يستريح لي كثيرًا، ولا يمل الحديث معي.

لكن السؤال الآن: كيف انتقل (سليم) ليقبع في قلب دائرة أخطبوط مثل (مراد عز الدين)؟

للأسف لم أكن موجودًا وقت حصول هذه المصادفة التي لا يدري أي منا حتى الآن ما إذا كانت سعيدة أم تعيسة، لقد حدث هذا ظهرًا، وكنت في عملي وقتئذ، فقط أعرف أن (مراد عز الدين) كان مارًا بهذا الحي البائس لسبب ما، واختار أن يجلس على هذا المقهى بالذات، وأن يطلب فنجان قهوة مضبوطًا، وكان صاحب المقهى قد طلب من (سليم) أن يجيء الفترة الصباحية ليستلم مسئولية المقهى لانشغاله بأمر ما، ولبى (سليم) الأمر، ليقوم بنفسه بإعداد فنجان القهوة لـ (مراد عز الدين)، ومن الرشفة الأولى بدا الرضا والإعجاب جليين على تعابير وجه ذلك الأخير!

كان (سليم) يعرف (مراد عز الدين)، فهو يراه في التلفاز من آونة لأخرى وهو يتحدث في كل الأمور، ويبدو شخصًا خبيرًا وعارفًا ببواطن الأمور، علاوة على أنه كان نائبًا برلمانيًا جريئًا لا يتورع عن مهاجمة الحكومة والقادة، والتلويح في وجوههم ببعض الأوراق التي تشتمل على تقارير وإحصائيات، ولا ينسى أن يدس لفظتي (المواطن المسكين) في كل عبارة يتفوه بها.

كان (سليم) معجبًا بشخصية (مراد عز الدين) من باب الانطباع فقط، وإلا فهو حتى لا يعرف ماذا يعمل بالضبط، ولا أي معلومة عنه سوى أنه يظهر على التلفاز ليتكلم، لكن هذا الإعجاب كان كافيًا لجعله يعتني بفنجان القهوة الذي نال إعجاب (مراد عز الدين)، لينادي على (سليم) ويطرح عليه بعض الأسئلة عن اسمه وسنه وبعض التفاصيل الشخصية، وفي النهاية منحه مبلغًا جيدًا يفوق قيمة فنجان القهوة عشرات المرات، كما أعطاه بطاقة اتصال تتضمن عنوان شركته وبعض أرقام الهواتف، وقال لـ (سليم) بلهجة آمرة، لكنها ودية:-

- "اتصل بي غدًا ظهرًا على الرقم الأخير"

يفترض أن يفرح (سليم) بهذه المصادفة، وبهذا الأمر الودود، لكن (سليم) الذي أفنى عمره في الفقر المدقع كان يتوجس من الأثرياء بطريقة غريزية، لذا قضى نهاره وليلته، وجزءًا من نهاره التالي في حيرة وتردد كبيرين، وحين حسم أمره أخيرًا واتصل بذلك الرقم لم يحصل على رد، وارتاح لهذا كثيرًا، لكنه بعد دقائق قرر أن يكرر المحاولة فقط لإرضاء ضميره ويقول لنفسه أنه لم يفوت الفرصة التي سنحت له، وهو ينوي في قرارة نفسه أن تكون هذه المرة الثانية هي الأخيرة، وأعاد الاتصال مجددًا، ولا يدري لحسن الحظ أم لسوئه أتاه الرد في المرة الثانية.

لم يكن الرد من (مراد عز الدين) بل من شخص آخر يعمل عنده، وحين سأله عن هويته تحير (سليم) فيما يجيب به، إلا أنه قال:-

- "أنا (سليم)، (مراد) بيه طلب مني أن أتصل به اليوم ظهرًا"

لحسن – أو لسوء – الحظ لم يستفصل المتحدث من الجهة الأخرى عن شيء بعد هذه العبارة، فقط طلب منه أن ينتظر، وبعد ثوان أتاه الرد بصوت مغاير، وكان صوت (مراد عز الدين) نفسه، واكتشف (سليم) من أول وهلة أن (مراد) نسي أمره تمامًا، وها هو يسأله بجدية:-

- "(سليم) من؟"

ارتبك (سليم) أكثر، وتفوه بكلمات مشتتة ومتلعثمة، ذكر فيها المقهى وفنجان القهوة، وكان هذا كافيًا ليتذكره (مراد عز الدين) ويقول:-

- "آه.. أنت الشخص الذي أعدّ لي أطيب فنجان قهوة تناولته في حياتي.. هل ترى العنوان على البطاقة التي معك؟ أريدك أن تقدم عليّ الآن، ولا تتأخر"

قالها وأغلق الخط فورًا دون أن ينتظر إجابة، ليزداد موقف (سليم) تردّدًا وحيرة وتوجسًا، لكنه لم يملك إلا أن يذهب.

ولا داعي لأن أستغرق في تفاصيل اللقاء التالي، فقط يكفيك أن تعرف أن (مراد عز الدين) عرض على (سليم) وظيفة ساعٍ في مكتبه، يعد له القهوة كلما حضر إلى الشركة، وبراتب مجزٍ جدًا، جعل (سليم) يستغني عن أي مهنة أخرى، ولا أحد يدري حتى الآن – ولا حتى (سليم) نفسه – ما الذي أغرى شخصًا كـ (مراد عز الدين) للوثوق به كل هذا الثقة، لدرجة أنه نقله من مكتبه إلى بيته، وجعله ملازمًا له أغلب الوقت، واتسعت مهام ووظائف (سليم) لدى (مراد عز الدين) حتى صار خادمًا، وسائقًا، وسكرتيرًا خصوصيًا، وساعيًا، وكاتم أسرار، بل صار د. (نلسون) كما سبق أن نوهنا، وها هي الأعوام تمر ليصبح (سليم) ضلعًا أساسيًا في حياة (مراد عز الدين)، وكان هذا جيدًا من كل النواحي بالنسبة لـ (سليم)، فـ (مراد) يدفع له بسخاء، ويكافئه أجزل المكافآت على أقل شيء، كما أن (سليم) استفاد من نفوذ (مراد عز الدين) واتصالاته ليقدم خدمات كثيرة إلى جيرانه وأقاربه ومعارفه، وأصبح (سليم) نفسه صاحب نفوذ في حيه الفقير.

كانت علاقتي أنا قد انقطعت بـ (سليم) لسنوات بعد أن غادر المقهى والحي، وكنت أظن أنه نسيني، حتى فوجئت به ذات مرة يأتيني مرتعدًا مذعورًا، ويسحبني من المقهى بقوة ليأخذني إلى مكان شبه خالٍ ويقول لي بصوت مرتعد:-

- "الرجل المخبول يريد أن يقتل ابنه!"

- "....."!!

***

تيك تاك.. تيك تاك.. تيك تاك!

دقات عقارب الساعة تتوالى، بدا له هذا الصوت مزعجًا للغاية، مزعجًا حتى أكثر من الدخان الكثيف الذي بدأ يملأ فضاء هذه الغرفة المغلقة، متى يتوقف هذا الرجل القميء عن التدخين، ومتى تتوقف عقارب تلك الساعة السمجة عن النقر المتواصل؟

– "هل لي أن أسأل لماذا أنا هنا يا سيدي؟"

هكذا تساءل (ميلاد) في نبرة حاول أن يجعلها مهذبة ومتزنة قدر الإمكان، ومع ذلك خرج صوته متشبعًا بالتوتر والتوجس، لكن السيد المدخن الذي يرتدي الزي التقليدي للشرطة، وعلى كل كتف من كتفيه نجمتين لامعتين صغيرتين، بدا وكأنه لا يسمعه، لقد كان مستغرقًا في قراءة شيء ما بالأوراق التي أمامه على المكتب.

كان باب المكتب مفتوحًا، وبين آونة وأخرى يطرق أحد الجنود الباب ويدخل مؤديًا التحية باحترام لهذا الرجل المدخن، ذي النجمتين اللامعتين على كل كتف من كتفيه، ويحدثه في شيء ما، ليرد السيد المدخن ذي النجمتين بكلمات قليلة لكنها صارمة، فينصرف الجندي للتنفيذ، قبل أن يجيء آخر ليطرق ذات الباب ويفعل ذات الشيء.

الأمور تتكرر باطراد رتيب، وبشكل جعل (ميلاد) يشعر بكثير من الضجر، بجانب القلق والتوتر اللذين يهيمنان حتى على أنفاسه، ودقات عقارب الساعة تحول هذا الضجر إلى حنق شديد، كان يود أن يرحل من هنا في أسرع وقت، لكنه يعرف أنه لن يرحل إلا إذا سمحوا له بذلك.. تساءل في توتر وحنق: لماذا أنا هنا من الأساس؟!

– "أنت هنا لتخبرنا لماذا أردت أن تقتل نفسك؟"

أخيرًا تحدث ذلك الرجل المدخن ذي النجمتين اللامعتين على كل كتف من كتفيه، الغريب أنه قال هذا وهو لا يزال يطالع الأوراق التي أمامه دون أن يرفع بصره تجاهه!

– "عذرًا.. من قال إني أردت أن أقتل نفسي يا سيدي؟"

هكذا سأل (ميلاد) بكثير من الاستغراب، فرفع الضابط عينيه تجاهه لأول مرة، ونفث قسطًا كبيرًا من الدخان، قبل أن يقول:–

– "الشهود الذين رأوك تقف فوق السياج الحديدي للجسر، تهم بالقفز في الماء، ولحقوا بك قبل أن تفعل!"

تسارعت أنفاس (ميلاد) بشدة، وشعر بالعرق يتسرب من مسام جلده غزيرًا، وقال بصوت مرتعش:–

– "عذرًا يا سيدي.. هناك سوء فهم في الموضوع، أنا بالفعل كنت أقف فوق السياج الحديدي، لكني لم أكن أهم بإلقاء نفسي في النهار.. لقد كنت أحاول أن أستنشق الهواء العابر فوق النهر، كان له عبق جميل.."

سدد الضابط نظراته تجاه (ميلاد) بقوة، اكتشف (ميلاد) في هذه اللحظة أن عيني (الضابط) رماديتان، قال الضابط بنبرة جامدة:–

– "تستنشق هواء النهر فوق السياج الحديدي؟!"

رد (ميلاد) متوترًا:–

– "نعم.."

ثم أضاف بارتباك:–

– "أعرف الآن أنه تصرف أحمق، لكنه لم يبد لي كذلك وقتها!"

عاد الضابط ينظر إلى الأوراق التي أمامه ولاذ بالصمت، فشعر (ميلاد) بالضجر والحنق أكثر من ذي قبل، ونظر إلى عقارب الساعة التي لا تزال تنقر بشكل مستفز، إنها الساعة الرابعة صباحًا، لقد اقترب الفجر كثيرًا، متى يؤذن بالضبط؟ لا يذكر، هذا السؤال لم يشغل باله قط من قبل، لكنه يعرف أنه اقترب، حاول أن يتذكر منذ متى وهو هنا؟ هل جاءوا به قبل منتصف الليل أم بعده، تذكر أنه شاهد عقرب الساعات قد تجاوز

الرقم اثني عشر، واقترب من الرقم واحد، بما يعني أنه هنا منذ ثلاث ساعات كاملة من الضجر والحنق.. متى ينتهي هذا الأمر، وكيف ينتهي؟

بعد قليل عاد الضابط ينظر إلى (ميلاد) نظرة مبهمة، قبل أن يلوح بتلك الأوراق التي أمامه بطريقة غريبة ويقول له:-

- "لقد تحرينا عنك باسمك ورقمك القومي، كنت أريد أن أتأكد ما إذا كان عليك قضايا سابقة أو أحكام أو جرائم دفعتك للانتحار، لكن لحسن الحظ جاء سجلك نظيفًا."

حسن، هذا خير سار، لكنه ليس مفاجئًا لـ (ميلاد)، فهو بالفعل لم يرتكب أية جريمة في حياته قط.. لكن الضابط أضاف بنبرة صارمة للغاية:-

- "لكني عثرت على محضرين سابقين خلال العام الحالي احتويا على اسمك، ويبدو لي في المحضرين أنك حاولت قتل نفسك: مرة بالغاز في شقتك، ومرة في محطة المترو!!"

أها.. رفع (ميلاد) أحد حاجبيه مظهرًا الفهم، لكنه بادر قائلًا:-

- "لا لا.. هناك خطأ ما، هذا أيضًا سوء فهم، لم أكن أحاول أن.....!"

لكن الضابط لم يعطه الفرصة ليتم كلامه، فقط مال باتجاهه بقوة، وسدد عينيه الرماديتين في عينيه بحدة، وهو يقول:-

- "دعك من أي هراء سوف تقوله، لن تخرج من هنا حتى تخبرني بالحقيقة."

- "أية حقيقة؟!"

- "لماذا تريد أن تقتل نفسك؟!"

- "..... !!"

***

(مرتفعات ويذرينغ).. (إميلي برونتي).. هل قرأتها من قبل؟

هذا ما وقر في ذهن (ميلاد) في تلك اللحظة، وهو ينظر إلى الضابط بعينين متعبتين، ووجه إليه كلامًا غير منطوق: أشك أنك قرأتها، فرجال الشرطة لا يقرءون روايات، ولا أي إبداع من أي نوع، أشك حتى أنهم يقرءون محاضر التحقيقات التي يكتبونها بأيديهم.

لكن دعني أخبرك بسر يا سيدي الضابط: أنا أيضًا لا أقرأ روايات، أو أي إبداع من أي نوع، أنا لا أحب القراءة عمومًا، ولولا أن أبي أدخلني المدرسة دون أخذ رأيي لما اخترت أن أدخلها لأتعلم القراءة، أو أي شيء آخر تمنحه الكتب الدراسية.. لكني قرأت (مرتفعات ويذرينغ) بالرغم من ذلك، تستطيع أن تقول أنها الشيء الوحيد الذي أقبلت على قراءته طواعية في حياتي كلها!!

لماذا (مرتفعات ويذرينغ) بالتحديد؟ دعنا من هذا السؤال، لأن إجابته لن تهمك باعتبارك شرطيًا، صدقني.. إنه شيء بعيد كل البعد عن مجال عملك.

لكن الضابط كان ينتظر إجابات لأسئلته، وكان (ميلاد) غير راغب في الحديث في هذه الأمور، لكنه مضطر لأن يجيب:-

- "تسألني لماذا أحاول قتل نفسي؟ هذا غير صحيح يا سيدي، أنا أحب الحياة وأتمسك بها صدقني، ولا أريد أن أموت أبدًا، ما حدث في النفق كان حادثًا عن طريق الخطأ، كنت أقف شاردًا بانتظار المترو، أثناء انتظار أي شيء من الطبيعي أن يشرد الناس، ويسرحون مع الأفكار والذكريات، وقد شردت وسرحت، وأثناء شرودي نسي جهازي العصبي أن يعطي أوامره للقدمين بأن تثبت مكانهما، وهكذا تحركت من مكاني وأنا شارد الذهن لأتجاوز حافة الرصيف، ويميل جسدي للسقوط لأسفل في مسار القطار، وتزامن هذا مع قدوم المترو مسرعًا في تلك اللحظة، لولا أن أحد الركاب تحرك بسرعة وجذبني من ياقة قميصي بأصابعه القوية، وسحبني للخلف فوق الرصيف قبل وصوله بأجزاء من الثانية.. هذا ما حدث يا سيدي بكل أمانة!!"

لكن الحقيقة أن (ميلاد) نفسه كان متشككًا في روايته قبل الضابط نفسه!

– "وهكذا وجدت من يوبخني، ومن يربت على كتفي مشفقًا، ومن يسألني مثلك في غضب أو إشفاق: لماذا أريد أن أقتل نفسي، ولا أحد يريد أن يصدق الحقيقة، فقط كنت شارد الذهن وسقطت في مسار المترو!! ذات الأمر تكرر في منزلي حين أغلقت الأبواب وذهبت لأنام، ونسيت الموقد مفتوحًا، فتسرب الغاز وظل ينتشر حتى ملأ فراغ البيت، وأنا نائم لا أحس بشيء، لولا أن أحد الجيران شم رائحة الغاز، فجاء مسرعًا لإنقاذي، الجيران أيضًا ظنوا أنها محاولة لقتل نفسي، لماذا يسيء الناس فهمي كل مرة؟"

وشرد ذهن (ميلاد) مرة أخرى: (مرتفعات ويذرينغ) يا لها من قصة كئيبة! المشكلة يا سيدي أنها تجعلك في مزاج كئيب طيلة أحداثها، ولا تبتسم إلا في نهايتها، فقط النهاية هي التي تنفرج فيها المأساة، وتنقشع فيها العقدة الكئيبة، لا أنكر أن الرواية راقتني بشدة، لكنها جعلتني في ذات الوقت لا أفكر في قراءة رواية أخرى، فلست مستعدًا لتحمل جرعة أخرى من هذه الكآبة..

عاد يردد بصوت مسموع لكنه كان في الحقيقة يحادث نفسه:–

– "أنا لم أحاول أبدًا قتل نفسي! ما الذي يجعلني أقتل نفسي؟!"

***

(ميلاد راغب) شاب في نهاية العقد الثالث من العمر، يقطن هذا الحي منذ مولده، ومع ذلك لم أكن أعرفه ألبتة إلى أن حدث ما حدث تلك الليلة، حينما وقف جاره الأستاذ (فوزي) في الشرفة ليدخن سيجارة، فالتقط أنفه الحساس رائحة غاز منتشر، في البداية شك أن الدخان منبعث من شقته هو، فانطلق للداخل نحو المطبخ، وهناك تأكد أن عيون الموقد كلها مغلقة، وتشمم هواء الشقة فلم يجد شيئًا، مما دعاه للعودة إلى الشرفة الملاصقة لشرفة (ميلاد)، واشتم رائحة الغاز مرة أخرى، وأدرك أنه منبعث من شقة جاره!

وعلى الفور انطلق إلى هناك وطرق الباب مرارًا، وحين لم يتلق إجابة استعان بجيران آخرين لكسر الباب، وبمجرد دخولهم شموا رائحة الغاز القوية الخانقة تملأ المكان، ووجدوا

الفتى الشاب الذي يقطن وحيدًا ملقى على الأرض غائبًا عن الوعي، وسارعوا بسحبه خارج الشقة، واتصل بعضهم بالإسعاف، التي جاءت وأتمت عملية الإنقاذ.

بالطبع تم فتح تحقيق روتيني في الواقعة، وأدلى الفتى بأقواله وزعم أنه كان يعد لنفسه كوبًا من الشاي، وتركه وذهب لحاجة ما، ثم رجع وقد غلى الشاي وفاض وانسكبت محتويات الإناء على الموقد وانطفأت النار، فأخذ الإناء ونسي أن يغلق الموقد، ثم نام ولم يشعر بشيء إلا حين جاءت الإسعاف لتقله، وكان هذا كافيًا لغلق ذاك التحقيق الروتيني.

فقط تلك الليلة عرفت أن لدينا بالحي شابًا يدعى (ميلاد) يعمل محاسبًا بشركة أدوية، ويعيش وحيدًا، بعد رحيل والديه وزواج إخوته وتفرقهم في البلاد، فكان مني أن قمت بشراء بعض الفاكهة في اليوم التالي، وتوجهت إلى داره، وطرقت الباب ووقفت أنتظر، وكانت المرة الأولى في حياتي التي أطالع فيها هذا الوجه الأبيض المستدير، والشعر الكستنائي الناعم المرسل، والملامح الدقيقة المنمقة، والقامة المتوسطة، والسمت الذي يوحي بالنعومة والرفاهية.

من الوهلة الأولى عرفت أنه شاب وحيد حزين، بل مكلوم، بالطبع استقبلني استقبال من لا يعرفني، بل استقبال من لا يرغب في أن يزروه أحد، فما كان مني إلا عرفته بنفسي تعريفًا مقتضبًا، ثم رسمت ابتسامة عريضة على شفتيّ، وأنا أضيف:-

-"جئت لأطمئن عليك بعد ما حدث، نحن جيران، وهذا واجب."

لم يجد بدًا سوى أن يدعوني للدخول، بالرغم من كراهيته ذلك، وحين دلفت إلى الداخل أيقنت أنه فتى منعزل متوحد، غير معتاد على قدوم ضيوف إلى بيته، حتى أنه لا يوجد مكان يجلس فيه الضيوف من الأساس، لذا جلست قرب طاولة السفرة من نفسي دون أن يطلب مني ذلك، وجلس هو بالقرب مني صامتًا، لا يعرف ما الذي يقال في مثل هذه المناسبات.

قامت عيناي بجولة سريعة في المكان، الجدران تمتلئ بصور (يسوع) وبعض القساوسة، بجانب بعض الصلبان وآيات من الكتاب من المقدس، فيما عدا ذلك لا شيء يلفت النظر، وحين خفضت عيني على طاولة الطعام رأيت تلك الرواية، إنها (مرتفعات ويذرينغ)، أعرف هذه الرواية جيدًا، وقد قرأتها منذ أعوام ونسيت أحداثها، كما أعرف كاتبتها (إميلي برونتي) وأعرف شقيقتيها (شارلوت) و(آن) وثلاثتهن من رواد الأدب الإنجليزي، وكثيرًا ما أقابل أسماءهن في الكلمات المتقاطعة التي أستمتع بحلها.

لكن الغريب حقًا في الأمر: أنه بمجرد أن وقعت عيناي على الرواية، إذا بالفتى يهب ليمسك بها، ويركض بسرعة ليلقيها بأحد الأدراج، فاجأني هذا، بل أذهلني كثيرًا، إنه يتعامل كما لو كان مراهقًا تم ضبطه محتفظًا بمجلة إباحية!

ما الذي يدفع شابًا لمثل هذا التصرف؟ وما الذي يدفعه لإخفاء رواية كلاسيكية عن أنظار ضيوفه الذين لم يتوقع قدومهم؟!

***

ما الذي يعرفه محامٍ شاب عن اللغة الروسية؟

– "الآن أطلب منك أن تكوني هادئة.. انظري إليّ ولا تقولي شيئًا..

لقد حسمت رأيي ولن أتحدث عن الحب..

تركتك ترحلين، تجاوزي الأمر.. فقط ارحلي الآن، ولا تتذكريني مجددًا.."

ماذا يعرف (ربيع) عن اللغة الروسية؟! لا شيء على الإطلاق!! لكن هذه الأغنية راقته بشدة، بل سحرته: اللحن.. الصوت.. وترجمة الكلمات، لن أقول الكلمات ذاتها لأنه لا يعرف شيئًا عنها.. ولا يعرف حتى اسم المطرب الذي يغنيها، وما إذا كان ذكرًا أم أنثى، ربما كانا مطربين اثنين لا واحدًا، لأن طبقة الصوت تتغير من مقطع لآخر، أو ربما هو مطرب يجيد تغيير نبرة صوته، ليس يدري حقيقة..

ماذا يعرف عن اللغة الروسية؟ (ربيع) لا يزال يذكر أنه في طفولته عثر أثناء لعبه على بضع أوراق نقدية غريبة، لم ير مثلها من قبل قط، والكلمات المكتوبة عليها كانت بلغة غريبة، غير مألوفة بالنسبة له، فكر حينها أن يريها لوالده لكنه تراجع، فلم يكن يحب اللجوء إلى أبيه في أي شيء، وبعد تردد اختار أن يذهب إلى صديقه الشيخ (عادل)، الذي لم يكن قد أصبح شيخًا وقتها، كان مجرد صبي مثل بقية الصبيان، قلبها (عادل) بين يديه طويلاً ثم قال:–

– "لنذهب إلى أخي (عماد) ونسأله.."

ووافق (ربيع) بدون تردد، فـ (عماد) أكبر منهما، طالبًا بالثانوية كان، وبالتأكيد يعرف أكثر منهما، قلّب (عماد) – هو الآخر – الأوراق بين يديه قليلًا ثم قال:–

– "هذه عملة أجنبية.. ليست دولارًا.. عملة أخرى.."

لم يفهم (ربيع) حديثه، فقط فهم أنها نقود تخص الأجانب، ولا يتعامل بها أحد هنا، ثم قال (عماد):-

- "دعني أبحث الأمر.."

ترك له (ربيع) ورقة واحدة وذهب، لكن بعد أيام جاءه الرد من (عماد):-

- "إنها (روبل).. عملة روسية.. ليست ذات قيمة كبيرة!"

كان هذا أول شيء يعرفه (ربيع) عن روسيا، فيما بعد تدرج في دراسته حتى عرف من مادة التاريخ أن روسيا كان اسمها الاتحاد السوفييتي سابقًا قبل التفكك، وأنها ثاني أقوى دولة بالعالم بعد أمريكا، وأنها كانت حليفًا قويًا لنا، لا سيما قبيل حرب أكتوبر، الآن لا يعرف ما موقفها منا بالضبط، أو بالأحرى ما موقفنا نحن منها..

حين سمع (ربيع) تلك الأغنية لأول مرة، صمم أن يبحث عنها على الإنترنت، وحالفه الحظ فوجدها مترجمة، فقام بتنزيلها على جواله، وظل يستمع إليها طيلة الوقت، وتمنى لو أنه تعلم الروسية فقط ليتمكن من غنائها بنفسه، بدلًا من الإنصات إليها فحسب.

لا يعرف (ربيع) لماذا أعجبته هذه الأغنية، فهو لم يجرب الحب في حياته كلها ولا مرة، حتى وهو يتعامل مع المطلقات الجميلات لم يهف قلبه لامرأة منهن، كان يشعر بوجود حاجز كبير داخله يحول بينه وبين المرأة دون أن يعرف كنه هذا الحاجز ولا جذوره، ومع الوقت بدأ يفكر أن الحب ما هو إلا وهم كبير!

- "كلما أتذكر طفولتي، أتذكر مكاننا.. في سن السادسة عشر سئمنا القبلات..

ثم أخذتِ قميصي المفضل.. ما المغزى من ذلك؟

لقد كنت غبيًا، وارتكبت خطأ.. لماذا وقعت في الحب؟!

لماذا وقعت في الحب؟!"

ماذا يعرف (ربيع) عن اللغة الروسية؟ لا شيء على الإطلاق..

لكنه أحب كثيرًا هذه الأغنية!!

***

وجهه ازداد نحولاً وشحوبًا! هذا مخيف! فقط ينقصه نابان بارزان ليكون أحد مصاصي الدماء الذين قرأ (ربيع) قصصهم، وشاهد أفلامًا عنهم!

آخر مرة رأى فيها صديقه (محمود) كانت منذ أربعة أشهر تقريبًا، حين جاء إليه ليغير له نسخة الويندوز على اللاب توب، وها هو يجيء إليه الآن لنفس السبب، لكن بمجرد أن نظر في وجهه راوده ظن كاليقين أن (محمود) لم يغادر البيت، ولم ير الشمس، منذ لقائهما الأخير حتى اليوم، وربما لم يخرج حتى من قبل لقائهما الأخير بفترة..

رحّب به (محمود) وهو يغالب النعاس، وبدا له أنه ما زال نائمًا حتى بعد أن فتح له الباب ودعاه للدخول، وكان يتكلم كالنائم الذي يهلوس، قال (ربيع):-

- "النسخة أصبحت ثقيلة جدًا، والتحديثات الجديدة لا تتوقف، أعتقد أن هذه التحديثات هي سبب الثقل.."

لا يعرف حتى إن كان (محمود) سمعه أم لا، لكنه توجه متثاقلًا إلى غرفته المظلمة، وهو يتبعه، وكما توقع كانت الغرفة في غاية القذارة، وتفوح منها رائحة عطنة، لا يستبعد أن يكون ثمة فأرًا أو طائرًا ميتًا تحت الفراش، (محمود) يعيش بهذا البيت الضيق رفقة جدته العجوز، الجدة ما زال لديها بقايا صحة وعقل يجعلانها تتدبر حاجاتها الضرورية بنفسها، ولها بنات متزوجات يأتين لزيارتها من وقت لآخر لمساعدتها فيما لا تقدر عليه من احتياجات، وهن يعتمدن على وجود حفيدها الشاب معها، اعتقادًا منهم أنها لو تعبت فجأة، أو حتى ماتت، سيكون (محمود) بجوارها ويتدخل لعمل اللازم، لكن الحفيد الشاب لا يغادر غرفته الشبيهة بقبو مظلم ألبتة، لدرجة أن (ربيع) يتساءل: هل يأكل ويشرب مثلنا؟ هل يستحم؟ هل يوجد سبب يدفعه لمغادرة الغرفة المظلمة سوى الحمام؟ هل يغادر البيت لأي سبب؟

عرف (ربيع) منذ زمن أن (محمود) لا يسمح حتى لخالاته بدخول غرفته إطلاقًا، ولو بغرض التنظيف، بدعوى عدم العبث بأجهزته، التي لا تزيد على كمبيوتر قديم مفكك الأجزاء كف عن استعماله، ولاب توب يفترض أنه حديث، لكنه أهمل تنظيفه، وفي

الغالب يستعمله لساعات طوال تفوق قدرته على التحمل، حتى صار أقرب إلى قطعة خردة.

حتى عام مضى كان (محمود) شابًا مثل أي شاب، صحيح أنه تربى يتيم الأبوين بعد أن انقلبت السيارة بوالده ووالدته وشقيقته الكبرى، ولم يخرج أحد منهم حيًا منها، لكنه كان صغيرًا في الرابعة من عمره، والإنسان في هذه السن لا يشعر بالفواجع، خاصة أن جده وجدته – لوالدته – كانا حيين وقتها، ومنحاه من الحنان أكثر مما كان يحصل عليه من الأب والأم اللذين فقدهما، إلى أن رحل الجد بعد سنوات، وفي الغالب حزن عليه (محمود) عدة أيام، ثم نسيه كما ننسى جميعًا من يموتون من أقاربنا مهما كان حبنا إياهم.

حتى عام مضى كان (محمود) شاب كأي شاب آخر، يدخل ويخرج، يمزح ويثرثر، ويكتئب ويصمت، ثم أخذ يتحلل من رفقة الناس تدريجيًا حتى اختفى تمامًا، حتى (ربيع) الذي يُعد أقرب صديق له لم يره منذ أربعة أشهر، ومنذ يومين سأل عنه صديقيه الآخرين الشيخ (عادل)، و(جمال) معاون الشرطة، وكلاهما أكد له أنه لم يره منذ أشهر.. عرف (ربيع) أنه هنا، قابع في هذا المخبأ، لا يفعل شيئًا سوى العبث بالبرامج الإلكترونية، ويتنقل بين المواقع المختلفة، ومواقع التواصل، فهو يجد هناك رفقة أفضل من رفقة البشر الحقيقيين أمثالنا.

أضاء (محمود) النور، ولم يفت (ربيع) أن يلاحظ تأذيه من النور على وجهه الشاحب الذي تقلص، وعينيه المتعبتين المغمضتين تقريبًا، سريره هناك بالكاد يبدو من تحت الثياب والأغطية الملقاة بكل مكان، وأكثرها يتكدس فوقه، فوق الجدار صور لأفيشات أفلام أجنبية شاهد (ربيع) أكثرها: (باتمان)، (سبايدرمان)، (زورو)..

تناول (محمود) اللاب توب من (ربيع)، وأوصله بالكهرباء، ووقف ينظر إليه مغمض العينين لا يدري كيف، وحين بدأت التحديثات، قال مغمغمًا:-

- "لقد نسيت أن تلغي التحديثات التلقائية.."

قال (ربيع) مصححًا:-

- "بل أنت الذي نسيت.. أنت من قمت بتغيير النسخة لا أنا!"

لكن (محمود) قال غير مكترث بكلامه على الإطلاق:-

- "سأغير النسخة وألغي التحديث التلقائي.."

ثم التفت إلى صديقه بنصف عين، وأضاف:-

- "دعه لي ومر لأخذه صباحًا، سأسهر عليه.."

لكن (ربيع) قال له بحدة:-

- "بالطبع لا.."

ثم انتبه للحدة في صوته، فأضاف مرتبكًا:-

- "أعني.. أنني أريده.. أحتاجه في عمل هام هذه الليلة.."

في الحقيقة كان (ربيع) يكذب، كل ما في الأمر أنه يخشى أن يفتش (محمود) في المجلدات الخاصة به، ويكتشف الأسرار التي يخفيها عن الجميع، حتى عن أقرب أصدقائه!

(محمود) بارع جدًا في استخدام أجهزة الحاسوب المختلفة، لا يفعل شيئًا طيلة الليل أو النهار سوى العبث بأجهزته، تغيير نسخة الويندوز بالنسبة له أمر في غاية التفاهة، رغم أنه أمر شديد التعقيد بالنسبة لـ (ربيع)، ومهما حاول إخفاء الأشياء عنه سيصل (محمود) إليها إن أراد.

نعم (محمود) صديق مقرب جدًا له منذ الطفولة، لكنه رغم ذلك لا يحب أن يطلع أحد على أسراره مهما كان مقربًا له!

أضاف (ربيع) للمرة الثانية:-

- "قضية مهمة، والجلسة غدًا، يجب أن أنتهي من كتابة المذكرة سريعًا وطبعها، لكن النسخة ثقيلة جدًا لا تساعدني على ذلك!"

قال (محمود) بصوت واهن ومهزوز بفعل تأثير النوم:-

- "لا أستطيع عمل شيء الآن.. أنا متعب، لم أنم منذ يومين، اكتبها على الورق العادي حتى أفيق وأتصرف"

لكن (ربيع) ما كان ليترك له اللاب ويمضي مهما كان الأمر.. قال له:-

- "ومتى تفيق أنت؟!"

(محمود) ليس له مواعيد ثابتة لأي شيء، يمكنه أن ينام في أي وقت، ويصحو في أي وقت، قال وهو لا يزال يغالب النعاس:-

- "دعه لي، وحين أفيق في أي وقت سأعمل عليه"

لكن (ربيع) قام بفصل اللاب عن الكهرباء، وقال:-

- "حسن.. سأعود إليك وقتما تفيق!"

وحمل اللاب واستدار للانصراف، وبالطبع لم يحاول (محمود) أن يمنعه، بل بدا له أنه كان يريد التخلص منه أصلًا ليواصل نومه، حتى أنه ألقى بنفسه على الفراش فورًا، ولم يحاول حتى أن يوصله للباب الخارجي، لا بأس، فلا يوجد بالبيت سوى جدته العجوز، وهو يعلم أن (ربيع) لن يفكر في اغتصابها أو سرقتها، وحين غادر (ربيع) الغرفة متجهًا للردهة المقابلة لباب الخروج سمع (محمود) يقول بصوته الواهن المهزوز:-

- "لا يوجد سوى مدخل واحد.."

استدار (ربيع) للخلف ليستفهم عما قاله (محمود)، لكن هذا الأخير كان قد اقتحم النوم، وبدأ يغط بالفعل، واتضح أنه كان يهلوس..

مدخل واحد لأي شيء؟ تساءل (ربيع): فيم يفكر (محمود) بالضبط؟ أو بالأحرى: بمَ يحلم؟

لكنه هز كتفيه لينفض الأمر عن ذهنه، وحدث نفسه قائلًا: (محمود) يهلوس وهو نائم، ما الغريب في هذا؟ ربما هو الشيء الطبيعي، بل أقل الأشياء الطبيعية التي تصدر منه، أتوقع في زيارتي القادمة له - بعد عدة أشهر من الآن - سأجده يهذي ويهلوس في يقظته، وربما سيحدثني عن نهاية العالم، أو غزو كائنات فضائية للأرض، أو حتى يزعم أننا نعيش بداخل مصفوفة وهمية تسمى (ماتريكس)، أو أي شيء من هذا السخف!

الحقيقة المؤكدة التي أيقن بها (ربيع) الآن: أن (محمود) لم يعد ينتمي لعالمنا، والحقيقة الأخرى المؤكدة أيضًا: أنه لا يزال بحاجة إلى تغيير نسخة الويندوز في أي مكان آخر، دون أن يقلق من تفتيش مجلدات حاسوبه!

***

الفصل السادس

كان (سليم) هناك ذاك اليوم قبل ثمانية أشهر مضت.

رآه عند بوابة الشركة يقف في ارتباك وخجل، مجرد شاب نحيل، متوسط القامة، أبيض البشرة، تلك النظارة الطبية التي يضعها على عينيه الضيقتين تعطيه سمت الشاب المثقف المهذب الوقور، مظهره لم يكن يوحي بفقر ولا ثراء، بل هو وسط بينهما.

– "أريد مقابلة الأستاذ (مراد عز الدين)!"

كذا قالها: الأستاذ، وبدا لهم جميعًا هذا اللقب غريبًا جدًا على رجل كـ (مراد عز الدين)، صحيح أنه صحفي شهير، ويظهر في الفضائيات كخبير ومحلل سياسي واقتصادي فذ، لكن الجميع يعرفونه بلقب (بيه) أو (باشا)، ولا أحد يستسيغ نطق اسمه بغير هذين اللقبين ألبتة.

لا أحسب أحدًا في مصر كلها يجهل اسم وشكل وصيت (مراد عز الدين)، الكاتب الكبير، والمعارض الشرس للحكومة، له عديد من المؤلفات والكتب المطبوعة التي تحمل اسمه، وكلها تحلل وتناقش القضايا السياسية والاقتصادية بمصر والعالم العربي، وغيرهما، وكان في السابق برلمانيًا بارزًا، له صيته ومكانته تحت القبة، وكان يلقب بـ (جلاد الوزراء)، من كثرة ما يقدمه من استجوابات وطلبات إحاطة ضدهم، لكنه – مع ذلك – على علاقة وثيقة بأجهزة السلطة ومؤسساتها الكبرى، وله اتصالات ولقاءات شخصية بكبار رجالات الدولة، والوزراء الذين يستجوبهم ويهاجمهم يضعونه دائمًا بقائمة المدعوين لحفلاتهم الخاصة، وترى صوره أحيانًا في بعض الصحف والمواقع وهو يمازحهم ويضاحكهم، حتى وهو يتوعدهم بمزيد من الهجوم والأسئلة المحرجة.

لديه أكثر من فيلا، وأكثر من شقة بأرقى الأحياء بالقاهرة وغيرها، ولديه أكثر من شاليه بالساحل، وأكثر من سيارة، بعضها لم يستعمله قط، فهو رجل أعمال صاحب

شركات واستثمارات بجانب عمله في الإعلام، ورصيده بالبنوك يزداد يوميًا، ولهذا هو ينفق دائمًا ببذخ، ويستطيع شراء أي شيء بالمال، له معاملات مالية وموارد كسب لا أحد يعرف عنها شيئًا، وسمعه (سليم) مرارًا يجري محادثات هاتفية مع سماسرة البورصة، يتساءل فيها عن أسعار تلك الأسهم ومدى ارتفاعها وانخفاضها.

باختصار: (مراد عز الدين) ليس مجرد صحفي، ولا مجرد رجل أعمال، ولا مجرد ثري عابث ماجن، (مراد عز الدين) عبارة عن أخطبوط، له عديد من الأذرع تتحرك في كل الاتجاهات السياسية والاقتصادية والثقافية.

له زوجة حسناء تدعى (ناهد)، تقاربه في العمر لكنها تبدو أصغر منه بكثير، وتظهر معه دومًا بالحفلات والمناسبات الكبرى، ويلتقطان الصور معًا وهما يبتسمان في حب وسعادة، مع أنهما في حقيقة الأمر لا يطيق أحدهما الآخر ألبتة، فهو يراها عنيدة ومغرورة، وهي تراه وغدًا، و(سليم) يعرف جيدًا أن كليهما على حق، لكنهما يظهران كنجمين بالمجتمع الراقي، والجميع يحسدونهما على حياتهما، دون أن يعرفوا حقيقة الحال!

لديهما ابنة وحيدة تدعى (نورا)، فتاة جميلة كأمها لكنها مجرد فتاة ثرية خرقاء تافهة، لا تعرف في حياتها شيئًا سوى اللهو وإنفاق المال، وكان بإمكانهما الحصول على أبناء آخرين، لكنهما اكتفيا بتلك الخرقاء وحدها دونما سبب مفهوم، وعرف (سليم) فيما بعد أنهما اكتفيا بها بناء على رغبة وشرط السيد (مراد) نفسه، والأسوأ أنه كان متمسكًا به لأبعد مدى، متمسكًا به لدرجة أنه أجبرها على الإجهاض حين حاولت أن تفرض عليها الإنجاب مرة أخرى بالأمر الواقع، وحملت منه دون رغبته، ولأن الدرس كان قاسيًا جدًا لم تكرر السيدة (ناهد) المحاولة بعد ذلك، وبقيت معه دون أطفال.

وبالرغم من أن السيدة (ناهد) صعبة المراس، ولديها قدر كبير من التعالي والغطرسة مما يجعلها لا تستكين لرغبة أحد آخر ضد رغبتها، إلا أنها انصاعت لرغبة زوجها في هذا الأمر بالذات، فالجميع يعرفون أنه ليس من المستحب الدخول في صراع مع (مراد عز الدين)، خاصة في الأمور التي يعتبرها هو ضرورية جدًا بالنسبة له، وهذا الأمر بالذات

كان يعتبره كذلك، فقبلت بالهزيمة أمامه فيه، واستكانت رغمًا عنها، وظلت حياتهما معًا على هذا المنوال، خضوع من جانبها في مسألة الإنجاب مقابل تمتعها بالثراء الفاحش الذي تحظى به معه، والمكانة المرموقة كسيدة مجتمع.

لكن فجأة ظهر هذا الفتى على بوابة الشركة، يطلب لقاء الأستاذ (مراد) حسب تعبيره، وحين سأله موظف الأمن عن هويته أعطاه جواز سفر كتب فيه بالخط الواضح والناصع: (مصطفى مراد محمد عز الدين)، ورغم تطابق الأسماء الثالثة التالية للاسم الأول مع الاسم المعروف للسيد (مراد)، إلا أن الجميع تفاجأ بالفتى وهو يقول بصوت خافت:-

- "الأستاذ (مراد عز الدين).. أبي!"

(مراد) بيه لا يذهب إلى الشركة إلا مرة أو مرتين فقط أسبوعيًا، ويترك العمل لكبار موظفيه الذين انتقاهم بعناية بالغة، وهم يقومون بكل شيء مع علمهم بأن الفضل بالنهاية سينسب إليه هو لا هم، وهو لا يتدخل في العمل إلا في الأزمات.

حتى في عمله الصحفي يفعل ذات الشيء، يكتب مقالة أسبوعية اكتشف (سليم) بالصدفة أنه ليس كاتبها الفعلي، بل يستأجر أشخاصًا مجهولين - لا أحد يعرف عنهم شيئًا على الإطلاق - يكتبون له تلك المقالات مقابل أجر زهيد، لكنه لا ينسى أن يضع لمساته على كل مقالة لتبدو كما لو كان هو حقًا الذي كتبها، ثم ينشرها باسمه، وحين يظهر كضيف في أحد البرامج يطلب من أحد مساعديه التواصل مع الإعداد لترتيب الأسئلة وإعداد الإجابات قبل أن يذهب، ومع ذلك فإن لديه قدرة خارقة على اجتذاب الأضواء بفعل قدرته الرهيبة على الجدال والإقناع.

في هذا اليوم كان (مراد) بيه هناك بالشركة، وسرعان ما أتاه الخبر: أن ثمة فتى نحيل عند البوابة يزعم أنه ابنه!

كان (سليم) هناك يومها، ولأول مرة يرى وجه (مراد عز الدين) يرتسم عليه هذا التعبير الذي لا يمكن وصفه، ربما أوفق ما يمكنه قوله: أنه للمرة الأولى يكون له وجه إنسان، بل وجه طفل!

ومؤكد أن جميع من بالشركة شاركوه هذا الذهول الشديد، وقد اجتمعوا ووقفوا يرمقون هذا المشهد الغريب، وهم يرون (مراد) بيه يركض تجاه البوابة على عجل، وكاد أن يتعثر مرارًا وهو يركض، حتى وصل إلى الفتى، وأمسك بكتفيه وهو يردد بانفعال:-

- "(مصطفى)!! ابني!! (مصطفى)!!"

وللمرة الأولى يرى -كما يرى الجميع - دموع (مراد) بيه تتقاطر من عينيه، وهو ينقل بصره بين وجه الفتى، وجواز السفر الذي معه، كانت المرة الأولى التي يُرى فيها (مراد عز الدين) في هيئة إنسان!

وفي الأيام التالية تكشفت بعض الأمور، وعرف الجميع ما كان مخبأ في طيات ماضي هذا الأخطبوط! (مراد عز الدين) كان يومًا ما مجرد موظف حكومي، يتقاضى راتبًا ضئيلًا، له زوجة تعيش معه حياة تعيسة، وكانت حاملًا منه، لكنها أصرت على الطلاق منه لعدم تحملها بؤس المعيشة معه، وأذعن هو لرغبتها وطلقها، ثم وضعت له مولوده الأول وكان ذكرًا، وسمحت له بأن يراه ويحمله على ذراعيه عدة أيام، قبل أن يذهب ذلك اليوم وهو يمني نفسه بأن تقتنع وتوافق على الرجوع إليه، ليتربى الولد بينهما، ليفاجأ بها قد اختفت، واختفى معها ابنه، ليظل بعدها عدة أشهر - بل عدة أعوام - يقلب الأرض عليها على أمل أن يجدها، لكنه لم يجد شيئًا، فقط عرف أنها تزوجت شخصًا ما على درجة من الثراء، وسافرت معه إلى الخارج.

بالطبع كانت الضربة قاصمة له، وكان العبء في غاية الثقل والوجع، لكنه عرف بعد ذلك أن عليه أن يتحمل هذا العبء، ويتخطاه، وراح يصبر نفسه بأنه على الأقل ما زال ابنه حيًا في مكان ما برفقة والدته، وفي الغالب يحيا حياة جيدة، ولم يكن أمامه خيار سوى أن ينسى أنه تزوج يومًا ما، وأنه أنجب طفلًا ذهب منه، ويتذكر فقط أن عليه أن

يبني هو حياته ومستقبله، وأعتقد أنه نجح في كل ذلك أيما نجاح، لدرجة أنه مع الأيام نسي أن له ابنًا يعيش في مكان ما، ونسي أن يواصل البحث عنه!

لكن الابن رجع الآن لأبيه، وعرفنا أن الأم ماتت بعد معاناة مع المرض، ورضيت في النزع الأخير بأن يعود الابن إلى أبيه، واستعاد (مراد عز الدين) القطعة المفقودة من فؤاده، ولم يكن غريبًا أن يقضي الأسابيع التالية في احتفالات صاخبة بعودة هذا الابن، وكل أصدقائه ومعارفه شاركوه تلك الاحتفالات، كان الأمر شبيهًا بالأفلام الهندية، إلا أنها حبكة تجسدت في عالمنا الحقيقي، ومع رجل أبعد ما يكون عن عالم الإنسانية، وإن كان لا يبدو عليه ذلك.

في الواقع لم ير أحد (مراد عز الدين) إنسانًا مثلنا من لحم ودم إلا تلك الأسابيع المنصرمة، طبعًا قبل أن يتجرد تدريجيًا من تلك الإنسانية الطارئة، ويعود لما كان عليه، الأخطبوط الوغد الدنيء الانتهازي، لكنه مع ذلك ظل محتفظًا بتلك الإنسانية الطارئة فقط حين يكون مع ابنه الأوحد، معه يكون أبًا كما ينبغي أن يكون الأب، الحب، واللهفة، والحنو، والقلق، والاشتياق، وكل المشاعر النبيلة التي لا يمكن أن تراها عليه، كانت تتولد فقط مع هذا الابن الخجول المنطوي، الذي لا يشبه أباه في أي شيء على الإطلاق!

***

كان (سليم) هناك تلك الليلة، يقبع في إحدى سيارات (مراد عز الدين) المتوقفة أسفل بناية ما في أحد الأحياء الراقية، ينتظر سيده حتى ينتهي من سهرته مع بعض رفاقه، وكان (سليم) يتشاغل ويسلي نفسه بتصفح الجوال، مصبّرًا نفسه على الانتظار الطويل، لأنه يعلم أن سهرات (مراد عز الدين) ليس لها معدل زمني محدد، وقد تمتد إلى الفجر، لكن فجأة أتاه اتصال من سيده نفسه يقول له:-

– "(سليم).. مدام (ناهد) اتصلت بي الآن، تقول: سيارتها تعطلت، وتريدك أن تقلها إلى البيت، سوف ترسل لك اللوكيشن على الواتس خلال لحظات، وبعد أن توصلها عد إليّ، لن أذهب حتى تأتيني"

لقد تعود (سليم) ألا يناقش سيده في أي شيء، ولا يرد سوى بالألفاظ التي تظهر الامتثال والانصياع للأمر، وبالفعل تلقى رسالة من السيدة (ناهد) توضع له موقعها ليذهب ويقلها بالسيارة من هناك، ولم تمض نصف ساعة حتى كانت السيدة تجلس في المقعد الخلفي وهي ترتدي ثوبًا أنيقًا ومثيرًا للغاية، وتضع عطرًا يعصف بأعتى الرجال وأشدهن صلابة، لكن مع ذلك ظل (سليم) كالصنم أمامها، فهو أجبن وأضعف من أن يخاطر بفعل شيء يثير غضب سيده (مراد عز الدين) عليه، فما بالك لو تحرش بزوجته؟

وحين أدار (سليم) عجلة القيادة ليوجه السيارة تجاه فيلا سيده، فوجئ بالسيدة (ناهد) تقول له:–

– "لا أريد العودة إلى البيت الآن.."

نظر (سليم) في المرآة التي أمامه ليطالع وجهها الفاتن متسائلًا، لكنها استطردت:–

– "اسمع.. أريد منك خدمة"

وقبل أن يتحدث (سليم) وينطق بأحد ألفاظ الامتثال مالت هي نحوه من الخلف، واشتد تأثير عطرها عليه، لكنها كانت تتحدث بجدية تامة:–

– "أنا أعرف أن ولاءك لـ (مراد) فقط، لكني أريد أن تمنحني هذا الولاء لمدة ساعة واحدة، هل تفهم؟ ساعة واحدة فقط وسوف أكافئك عليها جيدًا.."

تحير (سليم) فيما تقصده، وشعر بكثير من القلق والتوجس، ولم يملك إلا أن يقول:–

– "تحت أمرك يا هانم.."

تراجعت هي للخلف، وقالت:–

– "أريدك أن تقودني إلى محامٍ جيد، محامٍ غير معروف لـ (مراد) بالمرة.. هل تعرف واحدًا؟"

ازداد (سليم) قلقًا وتوجسًا، وتصاعد الأدرينالين في دمه، وشعر بانقباض وحيرة، ولم يعرف بم يجيب السيدة، التي كررت السؤال بلهجة حازمة:-

- "هل تعرف محاميًا؟"

بالطبع كان (سليم) يعرف، في الواقع هو لا يعرف في الدنيا كلها سوى محامٍ واحد فحسب، وهي بمجرد أن نطقت كلمة محام خطر اسم وشكل هذا المحامي على ذهنه في التو واللحظة..

إنه (ربيع).. محامي المطلقات!"

***

الفصل السابع

(ميلاد) كان محاسبًا.. قليلون في بلادنا من يحبون مهنتهم، و(ميلاد) كان واحدًا منهم، أتدري يا سيدي ما أكثر شيء كان يعجبه في مهنته؟ هو لم يخبرني بذلك، بل مجرد استنتاج مني: أنها لا مجال فيها للعواطف، فقط (١ + ١ = ٢)، لا تكون إلا اثنين، سواء كنتَ حزينًا أم مسرورًا، محبًا أم كارهًا، راضيًا أم حانقًا، لا تكون إلا اثنين، وخلاف ذلك يكون خطأ بكل الأحوال.

لماذا يكره شاب مثل (ميلاد) العواطف؟ ألأنها تضعفنا؟ بل تقتلنا، خاصة تلك الرابطة المخيفة التي تجعل إنسانًا يعتقد أن حياته مرهونة بحياة شخص آخر، وأنها تتوقف على حضوره وتنتهي برحيله!

إنه لشيء سيئ حقًا أن تحمل كل هذا الضعف بداخلك، وتتخلى عن جزء كبير من روحك لحساب شخص آخر، حتى (هيثكليف) الوغد القاسي شعر بهذا الضعف الشنيع تجاه (كاترين)!

ماذا قلت؟ من (هيثكليف)؟ ومن (كاترين)؟

يا له من سؤال! إنهما بطلا (مرتفعات ويذرينغ) التي سبق أن تحدثنا عنها، (هيثكليف) كان وغدًا صلبًا قاسيًا، لكنه كان أضعف ما يكون أمام (كاترين)، وحبه إياها هو الذي قتله في النهاية!

على كل حال دعنا من كل هذا فلن يفيدك بشيء أن نتحدث عن العواطف أو الضعف أو أبطال رواية لم تقرأها.. فقط أردت أن أقول إن (ميلاد) أحب مهنته كثيرًا، علاقاته جيدة بزملائه، رئيسه في العمل ذلك المتجهم الصارم الذي يتصيد الأخطاء للجميع لا يلين إلا معه، ولا يتقبل أحدًا سواه من بين جميع الموظفين، ويعامله معاملة جيدة للغاية..

بالطبع كان هذا يغيظ بعض الزملاء، وبدأ الخبثاء منهم يلمحون أمام (ميلاد) بأنه على علاقة غير شرعية بالمدير، خاصة أن (ميلاد) كان فتى وسيمًا له سمت قريب من الأنثوي، لكن الحقيقة أن المدير كان معجبًا بـ (ميلاد) ليس فقط لأنه ملتزم جدًا في عمله، ولا لأنه ملتزم بمواعيده، وإنما لأنه الوحيد بالشركة الذي لا يعترض ولا يتذمر، وينفذ كل ما يأمره به دون مناقشة، وفوق ذلك هو يجيب الإجابات التي ترضي غرور المدير دائمًا حين يطرح عليه أي سؤال، فحين يسأله مثلًا: ما أكثر شيء تتمناه في عملك هذا؟ يجيب بصدق: أن تكون راضيًا عن عملي يا سيدي، وحين يسأله: ما طموحك من العمل معنا؟ يجيب بكل صدق: أن أحظى بثقتك التامة يا سيدي.. وهكذا..

إجابات (ميلاد) صادقة فعلًا، ولا يقصد من ورائها أي نفاق أو تملق، الأمر أشبه بحال (فورست غامب) ذلك الفتى الأبله، حين التحق بالجيش وسأله الرقيب أو العريف: لماذا التحقت بالجيش أيها الجندي؟ فأجاب (غامب) بصدق: "لأنفذ ما تأمرني به يا سيدي!" فقال العريف أو الرقيب: "اللعنة يا (غامب)، هذه أكثر إجابة عبقرية سمعتها في حياتي!".

هل تعرف (فورست غامب) أو سمعت عنه؟ أعتقد أن (ميلاد) هو النسخة المصرية منه في عالم الواقع، زملاء (ميلاد) يسخرون من هذه الإجابات وينظرون إليه باعتباره شخصًا مداهنًا يتملق رئيسه في العمل، لكن (ميلاد) شخص صادق جدًا ولا يتعمد أن يداهن، ولا يعنيه ما يعتقدونه عنه..

وبالرغم من ذلك كله كان زملاء (ميلاد) يحبونه، فهو خدوم جدًا، يساعد الجميع ولا يطلب مساعدة من أحد، ويغطي على أي قصور من أحدهم؛ كما أنه – وهذا هو الأهم – ليس واشيًا، في كل مكان عمل هناك شخص واشٍ، يشي بزملائه وينقل كل التفاصيل إلى مديره، يسمونه في بلادنا "عصفورة"، و(ميلاد) رغم علاقته الوثيقة بالمدير لم يكن كذلك بالمرة، وهم يعرفون ذلك جيدًا، ويعرفون أنه يساعدهم طواعية ولا ينتظر المقابل، هذا هو، وهذه طبيعته..

لكن (ميلاد) – مثله مثل أي إنسان آخر – لديه ذكرى من الطفولة تؤرقه، أخته (يوستينا) ذات السبعة عشر ربيعًا، ترتعد وهي ثائرة الرأس، ممزقة الثياب، زائغة العينين، واللعاب يتطاير مع صيحاتها الملتاعة:-

- "غااء.. غاااااااااااااااااااااااااااء!"

كذا كان يسمعها تصيح، وأبواه يحاولان السيطرة عليها، وإخماد صوتها، وهي لا تزال تصرخ وتصيح تلك الصيحة العجيبة: "غاااااااااااااااااااااااااااااااااااااااء.. غاااااااااااااااااااااااااااااااء"، ووجد (ميلاد) – الذي كان لا يزال صبيًا لم يتم عامه العاشر بعد – نفسه يرتعد مثلها، ويبكي رعبًا، ويحاول أن يفهم ما يدور، وتساؤلاته تصطدم بجدار سميك من التجاهل والارتباك، وحين كان يسترق السمع إلى همهماتهم تصله كلمات مبعثرة ومتداخلة لا يستطيع أن يميز منها سوى كلمة (شيطان).

لا تزال تلك الذكرى تلاحقه في صحوه ومنامه، وتختلط فيها صيحات أخته (يوستينا) بتمتمات القس (فلوباتير) وهو يطوق الفتاة بإحدى ذراعيه، ويمرر راحته الأخرى فوق رأسها وجبهتها، واستطاع (ميلاد) مع تكرار المشهد أن يميز بعض تمتماته الخافتة:-

- "أحبك يا رب يا قوتي، الرب صخرتي، وحصني و منقذي، إلهي صخرتي، به أحتمي، ترسي وقرن خلاصي، و ملجئي، أدعو الرب الحميد فأتخلص من أعدائي"

لكن تلك التمتمات لا توقف تلك الصيحات إلا قليلًا، وسرعان ما يعود الصوت الملتاع يتردد في فضاء الغرفة: "غاااااااااااااااااااااااااااااااء.. غاااااااااااااااااااااااااااااااء"! و(ميلاد) يحاول أن يعرف ويستفسر، فلا يجد أحدًا أقرب إليه من أخته (جانيت) ذات الخمسة عشر ربيعًا، فيسألها وهو يرتعد ذعرًا:-

- "لماذا تصرخ هكذا؟ ولماذا تقول: غااااااااااااااء؟"

فتجيب (جانيت) غير مكترثة بأسئلته، وإن كانت ترتعد هي الأخرى:-

- "بل تقول: اااااااااااااااااااااااااااااااه.. أنت أطرش!"

لكن (ميلاد) يصيخ السمع مجددًا فتصل الصيحات إلى أذنه هادرة تقول: "غاااااااااء.. غاااااااااااااااااء"، لا يشك في هذا، ويتحول ذعره تجاه (جانيت) وهو يتساءل: لماذا تجاهلت الجزء الأول من سؤاله؟

ويعود لينصت إلى تمتمات القس (فلوباتير):-

- "في ضيقي دعوت الرب، و إلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي وصراخي قدامه، دخل أذنيه فارتجت الأرض، وارتعشت أسس الجبال، ارتعدت وارتجت لأنه غضب".

وتتوقف الصيحات قليلًا، ثم تعود مجددًا لتملأ فضاء الغرفة: "غاااااااااااااااااااااااااااااااااء.. غاااااااااااااااااااااااااااااء"! ولا تزال تساؤلات الصبي المرتعد ترتطم بجدار سميك من التغافل، وفي لحظة استرخاء نادرة الوقوع في بيتهم غلبه النوم فنام، لكنه استيقظ على همهمات أسرته التي أخلت غرفة كاملة لـ (يوستينا) وحدها، واحتشد الباقون في الغرفة الأخرى، وعلى ضوء المصباح السهاري الخافت والظلال المبهمة المتراقصة، تتسلل إلى أذنيه كلمات مبعثرة ومتناثرة، ولا يميز منها سوى كلمتين: "شيطان" – "الحب"!

وتتردد تلك الكلمة الجديدة مرارًا: "الحب".. "الحب".. "الحب".. وتتداخل مع بقية الأصوات المتشابكة كأغصان أشجار اللبخ أو ذقن الباشا التي رآها ذات مرة بأحد المزارات، ومن بين تلك الأصوات المتداخلة تصله عبارة مقتضبة منتزعة من بين عدة عبارات تقول: "سوف تبرأ منه"!

وحين يستسلم مجددًا للنوم تعاود تلك الصيحات الملتاعة مهاجمته هادرة: "غاااااااااء.. غاااااااااااااااااااااااء"، وتتصدى لها تمتمات الأب (فلوباتير):-

-"أرسل من العلى فأخذني، نشلني من مياه كثيرة، أنقذني من عدوي القوي، ومن مبغضي، لأنهم أقوى مني، أصابوني في يوم بليتي، وكان الرب سندي، أخرجني إلى الرحب!!"

وتتوالى الأيام ما بين الصيحات والتمتمات، ومع مرور الوقت يخبو كلاهما، وتستعيد (يوستينا) اتزانها وسمتها الصبوح البهي، ويظل (ميلاد) يتأملها ويقارن بين هذه الصورة التي أصبحت عليها، والصورة الصارخة المرتعدة التي كانت عليها، ويحاول أن يتذكر ليحدد: هل كانت تقول: "غاااااااااااااااء" أم (ااااااااااااااااه) كما زعمت (جانيت)؟

كبر (ميلاد) وصار شابًا، ولم يحصل على أي جواب من أسئلته التي طالما اصطدمت بجدار التجاهل السميك، كل ما يعرفه أن (يوستينا) تعافت، وفي خلال عامين تاليين تزوجت من أحد أقاربهم، ورحلت معه إلى داره، ولم يعد يراها إلا في الزيارات الخاطفة لأسرتها برفقة أطفالها الذين أنجبتهم تباعًا، وكان يستريح كثيرًا لضحكتها ووداعتها التي استقرت عليها، (جانيت) أيضًا تزوجت بعدها، وحتى (مادونا) الصغيرة تزوجت، ثم رحل الأب، وتبعته الأم بعد سنوات قليلة، وبقي (ميلاد) وحده بالبيت، ملاحقًا من تلك الصيحات المبهمة، والكلمات المبعثرة التي رابط بينها: "شيطان – الحب"!

مجرد ذكرى عتيقة من زمن – بالنسبة له – سحيق، لكنها لا تزال تقض مضجعه، وكم من الليالي التي صحا منها مذعورًا على صوت (يوستينا) وهي تصرخ: "غاااااااااااااااااااء.. غااااااااااااااااااااااااااااااااء"، فيلوذ بتمتمات الأب (فلوباتير) التي اكتشفها بنفسه في الكتاب المقدس، وحفظها، وحفظ همهمات أخرى سواها، فيردد وهو يرتعد:-

- "بك يا رب احتميت فلا أخزى إلى الدهر، بعدلك نجني وأنقذني، أمِل إليَّ أذنك وخلصني، كن لي صخرة، ملجأ أدخله دائمًا، أمرت بخلاصي لأنك صخرتي وحصني، يا إلهي نجني من يد الشرير، من كف فاعل الشر والظالم، لأنك أنت رجائي يا سيدي"!

***

- "أنا سعيد في حياتي وفي عملي سيدي الضابط، ولا يوجد أي شيء يدعوني لقتل نفسي.. تلك هي الحقيقة يا سيدي!"

كذا قال (ميلاد) بنبرة حاول أن يجعلها متزنة وثابتة قدر المستطاع، ثم استطرد:-

-"كما أني أعيش بمفردي منذ أن مات أبي بسكتة قلبية، ولحقت به أمي بعد إصابتها بسرطان الثدي، وأخواتي تزوجن وانتقلن إلى بيوت أزواجهن، ولا أراهن إلا في المناسبات، بما يعني أنه لا يوجد أحد يعكر صفو حياتي، أو يشعرني بالتعاسة.. ولا تظن أن الوحدة قد تدفعني لذلك، بالعكس.. أنا مستمتع بوحدتي، أطهو لنفسي، وأشتري بعض الوجبات من الخارج، وأنظف وأغسل بنفسي، أعمال المنزل ليست صعبة إلى هذه الدرجة..

أصدقاء؟ لا ليس لي أصدقاء بالمرة، كان لي أصدقاء في الماضي، أكثرهم زملاء دراسة، وبعضهم جيران، والبعض الآخر تعرفت عليهم في مناسبات مختلفة، لكني في النهاية لم أتمسك بأحد، كما لم يتمسك أحد بي، وهكذا لم يعد لي أصدقاء، لكني لا أعتبر هذه مشكلة، ولا أشعر بفراغ في حياتي..

أنا أقضي معظم النهار بالعمل، وأعود لأنام حتى الليل، ثم أجلس أمام التليفزيون حتى يغلبني النوم مجددًا، وأستيقظ في موعد ثابت نادرًا ما أفوته، حياتي روتينية جدًا، لكنها مرفهة جدًا، كل تفاصيلها تتكرر يوميًا باطراد، لكنها ليست سيئة ولا خانقة، أحيانًا أقوم بجولات في بعض الأماكن العامة لأغير مزاجي، ثم أعود إلى بيتي راضيًا، هذه حياتي دون زيادة أو نقصان..

آمال وطموحات؟ لا.. ليس لي طموحات أو أمنيات من أي نوع، لقد حققت كل ما أصبو إليه، تخرجت في الجامعة بتقدير جيد، وحصلت على وظيفة جيدة، وأتقاضى راتبًا جيدًا، ولديّ شقة وسيارة، لقد حققت كل شيء، وبالتالي لن أشعر بإحباط أو خيبة أمل نتيجة انهيار أحلامي! هل تفهمني يا سيدي؟"

وينتهي (ميلاد) من خطبته المنطقية المنمقة، ويقف محاولًا استجماع أنفاسه المبعثرة، ويتغلب على شعوره بالحصار، والتخلص من صوت دقات الساعة الذي لا يزال يتردد في أذنيه مستفزًا هدوءه، لكن صوتًا ما يستطرد بداخله، قائلًا:-

– "لكن لأكن صادقًا معك يا سيدي حتى النهاية، الأمنية الوحيدة التي تمنيتها ولم تتحقق: هي أن أكون قاسيًا وقاهرًا مثل (هيثكليف)!!"

ولم يسمع هذا الصوت أحد سواه!

***

الفصل الثامن

ما أسرع أن يتغير الإنسان! يقولون: إن الطباع لا تتغير، والطبع يغلب التطبع، هذا غير صحيح يا سيدي، الإنسان يظل محتفظًا بطباعه وشخصيته فقط إذا ظلت الظروف التي يعيشها ثابتة لا تتغير، أما إذا تبدلت الظروف والأحوال فتجده أسرع تغيرًا من الماء مع تحولات الطقس!

هل تظن أن ذلك الشخص الريفي المنغلق سيظل منغلقًا إذا انتقل للعيش في مكان منفتح، وسط أناس متحررين؟ بالتأكيد لا، إن أكثر من تراهم من حولك وفدوا من الأرياف البعيدة، واستولت عليهم أجواء المدينة فنسوا كل أفكارهم وأعرافهم وحتى طباعهم وتبدلوا إلى أشخاص آخرين، والذين كانوا يرون مجرد إخراج المرأة رأسها من النافذة عارًا يستوجب إراقة الدم، هم الذين يأخذون زوجاتهم اليوم في نزهة على الكورنيش أو في أحد المراكب النيلية!

إن جسد الإنسان ينمو في المراحل الأولى من عمره، حتى يصل إلى مرحلة معينة فيتوقف عن النمو، لكن شخصيته تظل تنمو وتتبدل حتى يفارق الحياة! (ربيع) هذا المحامي الشاب الذي أمضى شبابه بلا أية علاقة مع أية أنثى ولو عابرة، وانحصرت جميع تطلعاته في النظر إليهن من بعيد، وإذا تحدثت إليه أحد الجارات سائلة إياه سؤالًا عابرًا يرتبك ويتلعثم، ها هو الآن يقضي أغلب أوقاته صحبة المطلقات والمتزوجات الساخطات على أزواجهن، ويبادلهن الأحاديث والمزاح والآراء، ولم يعد لقاؤه بأية أنثى شيئًا يدعوه للخجل أو الفرار.

يعرف أن معظم معارفه يحسدونه على هذه المهنة، حتى صديقه الشيخ (عادل) يصرح له بذلك، ويقول له –كلما لقيه – مازحًا:-

– "إن كنت بحاجة إلى سكرتير ثقة يعاونك في عملك، فأنا أعرض عليك خدماتي بلا مقابل!"

(عادل) أيضًا رفيق الطفولة والصبا، وزميل الصف الدراسي خلال المرحلتين الابتدائية والإعدادية، قبل أن ينقله أبوه إلى الأزهر مع بداية المرحلة الثانوية، ومن هنا تغير مسار حياته تمامًا.

والد (عادل) – الشيخ (عبد الكريم) –كان معروفًا في الحي بصفته شخصًا فاسدًا منحرفًا، وكان معروفًا أيضًا بتعاطي الخمور والمخدرات، وله حكايات كثيرة مخزية متعلقة بها، وظل كذلك حتى وقعت له تلك الحادثة الأليمة حين فقد ابنه البكر (عماد) في حادث سير مروع، وكان (عماد) يدرس بالجامعة وقتها، فكان المصاب أليمًا للغاية، والحدث جلل، فالفتى في ريعان شبابه، وموته قصم ظهر والديه، بعدها تغير مسار حياة الأب، ولزم المسجد والمصحف، ولم تمض عدة أشهر حتى كانت لحيته تملأ وجهه، وارتدى الجلباب القصير، وفرغ نفسه لحفظ القرآن ودروس العلم، وفي خلال سنوات قليلة أصبح مرجعًا لكل أهل الحي، لا يثقون بفتاوى أحد قدر ثقتهم فيه، ولا يصدرون إلا عن رأيه، ونسوا تمامًا ماضيه السيئ!

وانعكس هذا التحول في حياة الأب على الأسرة جميعها، فجأة صرنا لا نرى والدة (عادل) وأخته الوسطى إلا بالنقاب، وانتقل (عادل) إلى الأزهر، وكان طموحه دخول الطب أو الصيدلة، وكان يقول لأصدقائه مازحًا:–

–"إذا أفلحت سأصير طبيبًا وأعالجكم، أما إذا فشلت فلسوف أصلي بكم إمامًا!"

وقد حدثت الثانية، فلم يكن يملك الالتزام والاجتهاد الكافيين لأن يصير طبيبًا، ودخل إحدى كليات الدعوة، ليصير إمامًا وخطيبًا معتمدًا.

بالنسبة لأهالي الحي ما زالوا لا يتقبلون فكرة كون (عادل) إمامًا وداعية، ولم ينسوا ماضيه أبدًا مثلما نسوا ماضي والده، لأن (عادل) ببساطة لم يصر إلى ما صار إليه والده من الالتزام، (عادل) يمكن تصنيفه من الدعاة الذي يقال عنهم: (وسطيون)، حليق

اللحية هو، لا يرتدي الجلباب ولا يقصر الثياب، ولا يرتدي الطاقية إلا حين يكون فوق المنبر، لا يرتدي حتى الزي الأزهري، بل يرتدي القمصان والبنطلونات كعامة الناس، وأحيانًا البدلات الرسمية، هو أشبه ما يكون بهؤلاء الدعاة الجدد الذين نراهم فقط في شهر رمضان على بعض الفضائيات، يرتدون البدلات الإفرنجية، ويصففون شعرهم اللامع بعناية، ويلقون الدروس بالعامية، ودروسهم لا تخرج عن قصص وحكايا من الغزوات والتاريخ القديم. وأظن (عادل) يصلح للظهور على تلك الفضائيات ببنيانه الرياضي، ومظهره الوسيم الباسم، ولباقته الشديدة، فضلًا عن كونه من أهل التيسير الذين يجيزون أي شيء، ولا يحرمون إلا القليل من الأشياء!

وماضي (عادل) كله نساء، بداية بالخطابات التي كان يكتبها بالمدرسة الإعدادية ويلقيها في أدراج البنات، وتم ضبطه ومعاقبته عليها أكثر من مرة، ثم شكاوى بنات الحي من معاكساته المستمرة لهن، وعراك بعض إخوة هؤلاء البنات معه بسبب ذلك، وله في ذلك قصص شهيرة في الحي، وما جاوره من الأحياء!

يمكن القول إنه كان مراهقًا طائشًا في تلك الفترة، طائشًا بطريقة مفضوحة، إلا أنه في فترة الجامعة لم تصدر منه مثل هذه التصرفات، لكن هذا لا يعني أنه التزم، غاية ما هنالك أنه صار أقل تهورًا، وأكثر حذرًا.. و(ربيع) صديقه خير شاهد على ذلك!

(عادل) هو الذي علم (ربيع) العادة السرية، وأول من دله على المجلات والأفلام الإباحية، وعلى يديه عرف (ربيع) كل ما أمسى يعرفه عن الجنس والنساء بوجه عام، ومن ثم فإن (ربيع) هو أكثر من يعرف أن (عادل) لم يتب، فقط هو عرف كيف يستتر من الفضائح، وهذا لم يحسن سمعته كثيرًا في الحي.

لكن المريح في الأمر أن (عادل) لا يكترث أصلًا بتحسين سمعته، وهو يتجنب الاحتكاك بأهل الحي الذين يعرفون ماضيه، ويقضي أغلب أوقاته في أماكن بعيدة، حتى أصدقاؤه ما عادوا يرونه بالحي إلا لمامًا، أو مصادفة، ولقاءاتهم به تتم في أي مكان بعيد، لكن أهم شيء أن صداقتهم به لم تنقطع أبدًا!

حين يكون (عادل) رفقة (ربيع) يكون على طبيعته، ولا يحاول التظاهر بغير حقيقته، ولا يكاد يخفي شيئًا عنه، بالرغم من أن (ربيع) نفسه يخفي أشياء كثيرة عنه، ليس لعدم ثقته فيه، بل حياء من أن يعرف أنه في خلواته يصير مثله وأكثر، بل إن (ربيع) يعتقد أن (عادل) برغم كل فضائحه أكثر نقاء منه..

(ربيع) يعرف (عادل) جيدًا، أكثر من أي شخص آخر، الجنس ليس هدفه، ولو كان يريده لحصل عليه بسهولة، فلديه من الوسامة واللباقة والذكاء ما يمكّنه من ذلك، (ربيع) يعتقد أن (عادل) يبحث عن الحب، لقد خاض تجارب كثيرة ليس الحب من بينها، خطب بضع مرات وفسد الأمر ولم يتم، وها هو قد طرق العقد الرابع من العمر ولا يزال أعزب.

(ربيع) يعتقد أن هذه الرفقة منحوسة لسبب ما، فـ (جمال) هو الوحيد الذي تزوج من بينهم، أما هو و(عادل) و(محمود) فلا يزالون عذارى، أما (محمود) فقد قرر أن يعزل نفسه عن العالم، ويحبس نفسه في حجرة مغلقة، و(ربيع) قررت الاختباء خلف شخصية وهمية على مواقع التواصل ليرتع بها كيفما يشاء، دون أن يكتشف أحد هويته، وفي عالم الواقع يرافق المطلقات والزوجات الساخطات دون أن يبني علاقة مع إحداهن أيما كانت العلاقة، وأما (عادل) فاكتفى بإلقاء الدروس الدينية على النساء، وإلقاء الدعابات في ثناياها، والحصول على بعض المحادثات معهن في ليالي السهر الطويلة، و(ربيع) يعتقد أنه يفعل ذلك في سبيل البحث عن الحب المفقود.. إنه يبحث عن واحدة بعينها بين النساء ولم يجدها بعد، هو لم يخبر (ربيع) بذلك، لكن (ربيع) يعرفه تمام المعرفة، ويكاد يجزم باعتقاده هذا..

وفي تلك الليلة التقى الصديقان مصادفة كالعادة مؤخرًا، وعرض (عادل) مازحًا كالعادة خدماته كسكرتير متطوع لـ (ربيع)، ثم سأله باهتمام:-

- "هل تعمل بقضايا الخلع؟"

هذه المرة كان سؤاله جادًا، فأجاب (ربيع) بجدية مماثلة:-

- "نعم.. لماذا تسأل؟"

هز (عادل) كتفيه بعدم اكتراث، ثم قال:-

- "فضول لا أكثر.. كم قضية خلع تناولتها حتى الآن؟ وربحتها أم .....؟"

لم يصدق (ربيع) أن الأمر مجرد فضول كما يزعم، لكن بما أنه لا يريد أن يخبره فهو لن يضغط عليه ليعرف، وسينتظر حتى يكشف مراده بنفسه.

- "لم أعد القضايا، لكنهن كثير، وربحتهن جميعًا، كلام في سرك: هذه القضايا لا تحتاج إلى براعة محامين، يكفي رغبة الزوجة، واستعدادها التام للتنازل عن كل شيء، هذا كافٍ جدًا لحسم القضية أيًّا كانت الأسباب التي دعتها لذلك، ولن أقول هذا لغيرك!"

لمعت عيناه بغرابة، وقال:-

- "هذا رائع.."

تساءل (ربيع) بحذر:-

- "ما الرائع في الأمر؟"

هذه المرة كان الفضول يحرق (ربيع) ليعرف، وقد شعر (عادل) بذلك فقال مبتسمًا:-

- "أنت تعلم أني داعية، وتعلم أيضًا أن تأثيري في النساء أكبر بكثير من تأثيري بالرجال، اكتشفت مؤخرًا أن نسبة كبيرة جدًا من نساء البلد يرغبن في الخلاص من أزواجهن، لا يمر يوم دون أن تسألني إحداهن عن حكم الخلع، ومتطلباته، ولا أعرف محاميًا أثق به سواك، لهذا أريد أن أعرف خطوات هذا الأمر القانونية، حتى يكون لديّ الجواب لأي سؤال محتمل، هذا كل شيء!"

جواب مقنع، وغير مستبعد.. لكن (عادل) غمز بعينه مستطردًا:-

- "سأعمل لك دعاية مجانية بين النساء اللاتي أعرفهن أنا ويرغبن في خلع أزواجهن، مقابل أن تعرفني أنت بالمطلقات الجميلات اللاتي تتعامل معهن!"

وضحك باستمتاع..

***

صوتها مثير، نظراتها مثيرة، سَمْتُها مثير، كل شيء فيها مثير!!

لم يحدث من قبل أن أحس (ربيع) بهذه الإثارة أمام أية أنثى رآها بمثل هذا القدر، ووجد نفسه يجاهد لكي يعيد امتلاك زمام نفسه، والسيطرة على أعصابه وخفقات قلبه، ليبدو متزنًا ومتماسكًا أمامها!

جاءت إليّ بصفته المعروفة كمحامٍ، وقالت بشكل مباشر:-

-"أريد أن أخلع زوجي!"

دهش (ربيع) لما عرف أنها متزوجة، فلا شيء فيها يوحي بذلك على الإطلاق، قوامها المتسق المثير، كأنه مرسوم بعناية، مع الثياب شبه الضيقة التي ترتديها وتظهر أنوثتها بوضوح مثير، عيناها العسليتان الواسعتان، أهدابها الطويلة، بشرتها البيضاء الناعمة، قامتها الممشوقة التي تدنو من مائة وسبعين سنتيمترًا، من النادر جدًا في الوسط الذي يعيش فيه (ربيع) أن يرى امرأة طويلة متسقة القوام، تحمل كل هذا القدر من الإثارة الأنثوية، أغلب النساء اللاتي يراهن بدينات وقصيرات، اختزلن الطول فقط في ألسنتهن!

تريد أن تخلع زوجها، هذا ليس عجيبًا في هذه الأيام، ولا كل الأيام، إن الأنثى في بلادنا كل ما يهمها ابتداء أن تصطاد زوجًا ينقذها من العنوسة، ومن ألسنة الجارات، وقد توافق على أي شخص يتقدم إليها، وتتظاهر بالانتقاء تظاهرًا، فإذا حصلت عليه تبدأ بعد ذلك مرحلة التقييم، وإقناع النفس بالرضا أو بأنها أخطأت في قبوله، وإذا وجدت فرصة للتخلص منه لن تهدرها، بشرط توافر البديل الأفضل!

فإن لم يتوافر هذا البديل الأفضل فالرضا بالمقسوم، وتقديم مصلحة الأولاد – إن وُجدوا – خيار مريح للقلب والضمير معًا!

من واقع عمل (ربيع) بالمحاماة، وقضايا الأسرة تحديدًا، يستطيع أن يجزم بأن أكثر من تسعين بالمائة من قضايا الخلع كان البديل الأفضل فيها متوفرًا! فهل هذا ينطبق على هذه الفاتنة المثيرة؟!

اسمها (شهد)، كذا قالت وهي تعرفه بنفسها، ولم تزد على ذلك، فقط (شهد).. وهو اسم ذو مذاق جميل وعذب، لا يقل عذوبة عن جمال طلعتها، وإشراقة حضورها الأخاذ!

أضافت من قبل أن يسألها عن السبب:-

- "لا أطيقه!"

هل يضربها؟ هل يؤذيها بأي شكل؟ لا ينفق عليها جيدًا؟ أو الاحتمال الماثل دومًا في مثل هذه الأحوال: لا يستطيع إشباع رغباتها الجنسية؟ هكذا دارت الأفكار في ذهن (ربيع)، وحاول أن يصرح بها بشكل متسق، لكنه كان واقعًا تحت تأثير أنوثتها بشكل غريب، ووجد صعوبة في التعبير.

إلا أنها أراحته من هذا العناء، إذ هزت رأسها نفيًا بطريقة مثيرة، وقالت:-

- "لا شيء من هذا على الإطلاق! بالعكس.. هو ينفق عليّ جيدًا، فهو يربح من عمله جيدًا، ولديه أكثر من سيارة، وأكثر من مسكن، ويلبي جميع طلباتي المادية.. نحن نتشاجر أحيانًا، بل كثيرًا، لكنه لم يمد يده عليّ أبدًا، أما عن ذلك الأمر الآخر فأنا أعاني من نقيضه، إنه يريد النوم معي طيلة الوقت، بدرجة تنهكني أنا أكثر منه!"

حقيقة لا يلومه في هذا، مثلها يجعل العجوز شابًا مراهقًا، إنها في حد ذاتها تصلح كعلاج لمن يعاني الضعف في هذا الأمر!

تساءلت بنعومة:-

- "هل يوجد حل؟"

رد (ربيع) في سره: نحن لسنا بحاجة إلى حل أصلًا، في مثل هذه القضايا يكفي رغبتك في خلعه، القاضي لن يرغب في أكثر من هذا، ولن يطلب أسبابًا، لكني بالطبع لن أفصح لك عن سهولة الأمر، القاعدة التي تعلمتها مبكرًا، يجب أن يشعر الزبون بصعوبة القضية، حتى يؤمن باستحقاق المحامي للأتعاب التي يطلبها، وفي نفس الوقت يجب أن يعتقد بأن هناك حلًا دائمًا، وإلا بحث عن محامٍ آخر يقدم له الحل!

– "سنصل إلى حل بإذن الله.. لا تشغلي بالك بهذا، إنه عملي، وأستطيع تدبره، المهم أن يكون قرارك نهائيًا، حتى لا تندمي بعد هذا!"

في الواقع كان (ربيع) كل ما يريده من هذا كسب أطول وقت معها، وتعدد لقاءاته واجتماعاته بها، ليتشرب جمالها الفتان، حيث يعلم هو من الآن أنها بمجرد حصولها على الحكم الذي تنشده لن يرى وجهها مجددًا.

لكن السؤال الذي لا يفتأ يراود عقله مرارًا، وهو أهم شيء يريد معرفته: في معظم قضايا الخلع يكون البديل متوفرًا، فهل البديل متوفر لدى ربة الجمال هذه؟!

***

الفصل التاسع

كان (جمال) غاضبًا بشدة! من يره في هذه الحالة سيعتقد أنه المسئول الأول عن الأمن المصري، لا مجرد معاون شرطة يتبع أوامر الضباط، ولا يحيد عنها، (جمال) من الشخصيات التي يسميها النقاد "شخصية ثابتة أو مسطحة"، تلك الشخصية التي لا يمكن لها أن تفاجئك، إنها واضحة في مشاعرها وسلوكياتها، وفي تفاعلها مع من حولها.

صحيح أن حال (جمال) في الشغل وهو يتعامل مع رؤسائه وزملائه تختلف عنها في الشارع حين يتعامل مع المدنيين، ففي الحال الأولى يكون مطيعًا ومنصاعًا ومستعدًا أيما استعداد لفعل ما يؤمر به، ولا يجرؤ على المناقشة أو الاعتراض، أما في الشارع مع الناس المدنيين فإنه يكون منتشيًا بسلطته المحدودة، ويحاول إظهارها بشتى السبل، لكن حتى هذا لا يخرجه عن كونه شخصية مسطحة، لا تتوقع منها أي شيء مفاجئ.

(جمال) كان في صباه ومراهقته فوضويًا عابثًا صاخبًا، وكان أكثر رفقته نشاطًا وقوة، وفي نفس الوقت أكثرهم عبثًا ومزاحًا، أعتقد أن العمل بالمباحث يناسبه كثيرًا، فقد كان لديه ميل شديد منذ الطفولة لمعرفة كل ما يدور حوله، فإذا سمعوا جلبة بالجوار تجده يهرول مسرعًا إلى هناك ليستطلع الأمر، ولا يحب أن يخفي عليه شيء، وإذا رأى اثنان يتهامسان تشاجر معهما حتى يعرف عما كانا يتهامسان، ويتضايق حد الاختناق إذا كان هناك سر لدى بعضهم لا يعرفه هو، وإذا وقع أي حدث لا يُعلم فاعله يظل يحقق ويدقق ولا يستريح ويهدأ حتى يكتشفه.

هكذا كان منذ نعومة أظفاره، هذا بخلاف اندفاعه الشديد الذي يصل إلى حد الطيش والتهور، مع رغبته الجارفة في حيازة دور البطولة في أي عمل يشترك فيه أصدقاؤه، وكذا دور المنقذ إذا تعرض أحدهم لورطة تتطلب عملًا بدنيًا، كشخص يتدلى من مكان مرتفع، ويحتاج إلى من يرفعه، وما شابه ذلك.

ربما عمله في المباحث هذب هذه الصفات إلى حد ما، وعلمه الانصياع للأوامر، لكنه لا يكف عن التفكير في البطولة، ولا يجالس أحدًا إلا انخرط في الحكي عن المجرمين الذين قام بتوقيفهم، والعصابات التي قام بمطاردتها، والأعمال البطولية التي تطوع لإنجازها وقت أن أحجم عنها الآخرون، ويحكي بطريقة تجعلك تعتقد أن المباحث كلها تقوم على عاتقه وحده، ولو أنه تخلف عن عمله لأي عذر لن تقوم للمباحث قائمة أبدًا بدونه!!

كان (جمال) غاضبًا بشدة، ونقل غضبه إلى أسرته، حيث كان يعيش مع زوجة وطفلين صغيرين، فراح يزعق فيهم جميعًا بسبب وبدون سبب، ثم جلس وحده يردد غاضبًا:-

- "أولاد الـ..... فعلوها مجددًا!"

وحين اقتربت منه زوجته محاذرة تسأله عم يحدث لم ينهرها هذه المرة، فقد كان بحاجة إلى أن يتحدث، فرد وهو لا يزال غاضبًا:-

- "فعلوها مجددًا.. لم ير أحد وجوههم بسبب الأقنعة التي يرتدونها، هذه المرة سطوا على متجر يبيع لعب الأطفال!"

وتساءل في صوت شبيه بالزمجرة:-

- "من المخبول الذي يفكر في سرقة متجر لعب أطفال؟!"

***

الفصل العاشر

كان (سليم) هناك قبل عدة أعوام..

في غرفة (مراد عز الدين) الخاصة التي يدخلها أحد سواه وخادمه الأمين، لم تكن لوحة (سلفادور دالي) قد احتلت ذاك الجدار بعد، وكانت بعض الصور لـ (مراد عز الدين) نفسه في مواضع مختلفة تأخذ مكانها!

كان (سليم) قد جلب إليه زجاجة الجن الثانية، بعد أن فرغ سيده من الأولى في أقل من نصف ساعة، وفقد معها الكثير من وعيه ورشده، وبدأ يهذي هذيانه المعتاد، الذي لا يخرج عن سباب في بعض كبار القوم، وأحاديث عن زوجاتهم، ومن تمكن من الوصول إلى النوم معها، ومن يخطط للوصول إليه مستقبلًا، وأشياء أخرى غير مترابطة لا يعي (سليم) منها شيئًا، لكنه مطالب في كل الأحوال بالإصغاء وانتظار الأوامر القادمة المحتملة! وحين تجرع السيد كأسه الأولى من الزجاجة الثانية احتقن وجهه بشدة، ثم قال زاعقًا بلسانٍ ملتوٍ:-

- "أريد (تيكيلا).."

وكانت هذه مشكلة كبيرة لـ (سليم)، لأنه لا يوجد بالبيت (تيكيلا)، هناك (ويسكي)، و(نبيذ أحمر)، و(جن)، ويعتقد أنه لمح زجاجة (فودكا) في الثلاجة الصغيرة، هذا بخلاف البيرة طبعًا، لكنه واثق من أنه لا يوجد (تيكيلا)، فكيف يتصرف؟

عاد السيد يصرخ بعصبية طفل:-

- "أين (التيكيلا)؟"

اضطر الخادم الأمين (سليم) أن يحادثه كأنه طفل بالفعل، فقال:-

- "سأحضر لك واحدة في الصباح!"

الغريب أن هذا أتى بمفعوله، فتخلى السيد عن عصبيته، وملأ الكأس الثانية من الزجاجة، لكنه لم يشرب ما فيها، بل رفعها أمام عينيه، وراح يحدق فيها بشكل غريب، ثم قال بعد برهة:-

- "سلسلة قشرة.."

ثم انفجر في الضحك بشكل غريب!

طبعًا كان (سليم) قد اعتاد هذا من قبل، فالسيد يقول أشياء كثيرة بلا معنى في هذه الحالة، وهذا ليس أغرب ولا أسوأ ما يمكن أن يقوله! لكنه أضاف وهو يقرب الكأس من فيه:-

- "كان عيد زواجنا الأول.. أردت أن أفعل مثلما يفعلون في السينما، أحضرت لها هدية.."

توقف عن الكلام فجأة، ودفع بمحتوى الكأس في حلقه بجشع، واحتقن وجهه مجددًا، ثم مسح فمه بظهر يديه، وتنفس بصوت مسموع قبل أن يستطرد لاهثًا:-

- "سلسلة قشرة!"

وعاد يضحك بقوة مرة أخرى بذات الطريقة الغريبة.

الأمر بات شبه جلي للخادم الأمين (سليم)، السيد يتحدث عن زوجته، قال (عيد زواجنا)، بالتأكيد لن يقصد بهذا إحدى عشيقاته، لم يكن (سليم) يعرف وقتها أن السيد كان متزوجًا من أخرى قبل السيدة (ناهد)، وبالتالي فهم الكلام على أنها هي المقصودة، وتساءل في دهشة: لماذا سلسلة قشرة، وهو يستطيع شراء الألماس؟ هل يعقل أن السيد كان فقيرًا مثلنا في يوم من الأيام؟ وهل يعقل أن تكون السيدة (ناهد) شاركته رحلة الصعود من القاع إلى القمة؟

في الواقع وجد (سليم) صعوبة كبيرة وقتها في تصور أن السيد (مراد عز الدين) كان فقيرًا مثلنا في يوم من الأيام، ووجد صعوبة أكبر في تصور أن زوجته السيدة (ناهد) كانت فقيرة هي الأخرى، ربما كان الأمر كله لا يعدو هذيانًا غير حقيقي، بالتأكيد ليس

كل ما يقوله السكارى له أصل من الحقيقة، السكر يقود إلى عوالم أخرى بعيدة كل البعد عن الحقيقة والواقع حسبما يظن.

أشعل السيد سيجاره الغليظ، وراح يمتص منه الدخان وينفثه في الهواء في صمت، وهو ينظر إلى السقف بعيون زائغة، لكنه بعد برهة التفت إلى خادمه الأمين، وقال:-

- "أتدري ماذا قالت لي؟"

لم يرد (سليم) بالطبع، لأنه يعرف أن السيد لم يسأله ليتلقى إجابة، وأنه سيجيب بنفسه، وقد أجاب فعلاً:-

- "ياما جاب الغراب لأمه!"

ثم انفجر بالضحك بطريقة مريعة أكثر من ذي قبل.. ضحك حتى استلقى على ظهره، ضحك حتى دمعت عيناه، ضحك حتى سعل وتمخط، ضحك حتى كان أن يفقد الوعي! طبعًا استغرق الأمر وقتًا طويلًا، حتى كف عن الضحك، وجلس يلهث كأنه خارج من سباق عدْو.. ثم نظر إلى خادمه مجددًا، لكنه قال بهدوء هذه المرة، ووجهه لم يزل محتقنًا:-

- "لا تصدق النساء حين يتحدثن عن الحب والمشاعر والاهتمام يا (سليم)، خاصة في المناسبات العاطفية، هن في الحقيقة لا يكترثن إلا بالذهب!"

(سليم) لم تكن له أية تجارب مع النساء من قبل، ربما زميلات الصف في الطفولة، ابنة الجيران في المراهقة، وزميلات العمل في الكبر، لكن الأمر لا يتعدى النظرات من بعيد، وكلمات خاطفة، لكن الأمر في جميع الأحوال لم يتعد النظرات والتخيلات في الفراش، إن رصيد (سليم) من التجارب العاطفية عبارة عن صفر كبير..

وبالرغم من ذلك.. كان (سليم) يعرف تمامًا أن السيد محق تمامًا فيما قال!

***

الفصل الحادي عشر

(ميلاد) لا ينتمي إلى ملتنا يا سيدي، لكنه مثلنا تمامًا مؤمن بالقدر!

الأمر لا يتعلق بالملة أو المذهب، أو التدين بوجه عام، وإنما هو متعلق بالراحة النفسية، بعض الناس لا يؤمنون بالقدر لأنهم لا يروقهم التفكير في أن مصائرهم بيد أحد سواهم، أما نحن – وكذلك (ميلاد) – فيريحنا كثيرًا أن نعرف في قرارة أنفسنا أننا لسنا مسئولين عما يحدث لنا من أشياء سيئة!

(ميلاد) يؤمن تمامًا بأنه كان مقدرًا له أن يكون الابن الذكر الوحيد في أسرته، وكان مقدرًا أن يموت أبوه وأمه تباعًا، وقبل ذلك تتزوج أخواته ليبقى وحيدًا بالبيت.. وكان مقدرًا له أن يعجب بـ (دميانة) في المدرسة الثانوية، دون أن يتجرأ ولو لمرة أن يعبر لها عن مشاعره، مخافة أن تشكوه إلى مدير المدرسة، فيصبح أضحوكة أمام التلاميذ!! وكان مقدرًا أن يعجب بـ (سلمى) في الجامعة ولكن في صمت، مخافة أن يتسبب في إحداث فتنة طائفية بين الطلاب!

هل تفهمني يا سيدي؟ (ميلاد) موقن تمامًا بأن كل شيء في حياتنا مقدر، ونحن نتحرك وفق ما هو مخطط لنا منذ الأزل.. أليس هذا مريحًا للغاية لنا وله؟

لكن (ميلاد) بجانب ذلك لا يزال غير قادر على التخلص من هاتين الكلمتين العالقتين في ذهنه ووجدانه منذ الصبا: "الشيطان" – "الحب"، وبشكل ما ربط وجدانه بينهما، فأصبح يؤمن بأن الشيطان يكمن في الحب، أو أن الحب أقوى سلاح من أسلحة الشيطان، وهكذا تولدت عنده فوبيا خفية من الإناث بوجه عام، وأصبح مجرد الإعجاب بإحداهن أشبه بالوقوف على حافة الهاوية.

كذلك كان (ميلاد) يؤمن بأنه كان مقدرًا له أن يحصل على هذه الوظيفة، وكان مقدرًا ليه أن يشتري تلك السيارة، وكان مقدرًا له أن تتعطل تلك السيارة ذاك الصباح، فيضطر

لأن يستقل المترو للذهاب إلى عمله، وكان مقدرًا له أن يجلس في ذلك المقعد بالذات، مواجهًا تلك الفاتنة التي تمسك برواية (مرتفعات ويذرينغ)، وتنهمك في قراءتها بتركيز شديد، بحيث لا تشعر بأي شيء حولها!!

هذه هي الحقيقة يا سيدي: (ميلاد) كان يخشى الإناث بشدة، ويخشى أكثر من الانجذاب لهن بأية طريقة، وقد تضافرت الذكريات مع أحداث الحاضر مع هواجس الوعي واللاوعي في تكوين صورة مريعة لهن، تجعلهن أشبه بأفاعٍ رقطاء سامة، بالرغم من منظرهن الساحر الأخاذ! لذا لا تتوقع منه أن ينبهر بأية حسناء يراها في الشارع صدفة، أو بأنصاف الجميلات اللاتي يعملن معه بالشركة، لكنه لم يستطع أن يقاوم تلك الحسناء الفاتنة التي وجد نفسه يجلس في مواجهتها داخل عربة المترو لمدة اثنتين وعشرين دقيقة فحسب!

إنه حتى لم يستطع أن يمنع عينيه من تأمل شعرها الأسود اللامع الناعم المعقوص من الخلف على هيئة ذيل حصان، ولا تلك البشرة البيضاء اللامعة التي تتخللها ملامح دقيقة رقيقة محددة بعناية سماوية، ولا ذلك المعطف الجملي الأنيق ذي الياقة المنتصبة، الذي تظهر تحته تلك الكنزة الرمادية ذات الرقبة المرتفعة التي يسميها الشباب (هاي كول)، ول تلك السلسلة التي تتدلى من ذلك العنق الرفيع الخفي، وتنتهي بصليب أنيق، ولا تلك العيون السوداء الواسعة، التي تحيط بها أهداب كحيلة طويلة، خلاصة القول: لقد اكتشف أنه يجلس في مواجهة آية من آيات الجمال، أغدق الرب في تكوين محاسنها، وانهماكها في تلك الرواية زادها سحرًا وفتنة.

وهكذا ظلت عينا (ميلاد) مصوبة تجاه تلك الحسناء حتى الدقيقة الأخيرة، حين انتبهت هي لقرب محطتها، وطوت الرواية ودستها في حقيبتها، ونهضت لتستعد للنزول، فتبدى له قوامها الرشيق المتسق، وقامتها الممشوقة، وظلت عيناه مصوبتين نحوها وهي تقف قرب باب العربة بانتظار بلوغ المترو محطة نزولها، وفوجئ بنفسه ينهض من مجلسه ويحاول اختراق الزحام ليتبعها، وعيناه لا زالتا مصوبتين نحوها حتى بعد توقف المترو،

ونزولها منه، وابتعادها على رصيف المشاة، وأحس بلوعة غريبة حين انطلق المترو مجددًا ليحول بين عينيه وبينها!

كانت اثنتان وعشرون دقيقة فارقة في حياته كلها!

لماذا هي فارقة؟ لسبب بسيط، أنه قرر في اليوم التالي أن يترك سيارته ويستقل المترو عامدًا، لا.. لم يكن هذا قرارًا منه، بل كان ذلك مقدرًا أيضًا له، لكنه قدر وافق اختياره، كما كان مقدرًا له أيضًا أن يبحث عنها في عربات المترو حتى يراها مجددًا، تجلس ذات الجلسة، بذات الهيئة، ممسكة بذات الرواية، منهمكة في قراءتها، دون أن تشعر بأي شيء حولها! (مرتفعات ويذرينغ) مجددًا!!

هذه المرة لم يكن ثمة مكان في مواجهتها أو بجوارها، فاختار أن يظل واقفًا بالقرب منها في الطرقة التي تمتد بين صفي المقاعد، ممسكًا بتلك العارضة الرفيعة الأفقية المتينة المعلقة بأعلى، وابتسم له الحظ حين قام أحد الجالسين بالمقعد المواجه لها فانقض على مكانه بسرعة قبل أن يسبقه أحد الواقفين، وهكذا أصبح في مواجهتها مجددًا، ليتسنى له رؤية ملامحها الفاتنة بوضوح أكثر..

لم يفعل شيئًا سوى مراقبتها تلك الدقائق القليلة التالية، وأن يتملى في عينيها السوداوين الواسعتين ذات الأهداب الطويلة الكحيلة، والحاجبين الرقيقين الأسودين، والوجه الأبيض الناصع، والأنف الدقيق الرقيق..

كما كان مقدرًا له أيضًا أن يغادر الشركة ويمضي إلى حيث تباع الكتب، ليبحث عن نسخة من (مرتفعات ويذرينغ)، وينهمك في قراءتها أثناء عودته، ولا يصل إلى منزله إلا وقد قرأ نحو سبعين صفحة منها!!

***

فجأة رآه أمامه، واحتاج بعض الوقت لكي يتذكره، لكن (سليم) عاجله قائلًا:-

-"أنا (سليم) يا أستاذ (ربيع)، هل تتذكرني؟"

وفي هذه اللحظة ارتدت الذاكرة بضع سنوات إلى الوراء، لم يقدر (ربيع) على إحصائها بشكل محدد، ولا حتى بشكل تقريبي، إنه (سليم) الذي كان يعمل بذاك المقهى في وقت ما مضى، ثم تتابعت المشاهد على جدار الذاكرة.

(ربيع) جلس بذلك المقهى ينتظر أحد الزبائن، وطلب كوبًا من الشاي لنفسه، (سليم) الذي كان يعمل بذلك المقهى علم أن الأستاذ محامٍ، فجاء إليه يطلب منه استشارة قانونية، (سليم) بجانب عمله بالمقهى كان أخصائيًا اجتماعية بإحدى المدارس، أي أنه موظف بالحكومة، ويريد رفع دعوى قضائية للمطالبة ببعض المستحقات المالية، (ربيع) كان وقتها يعمل بمكتب ذلك المحامي الكبير، استمع إلى (سليم) ثم طمأنه بالتأكيد على أن مثل هذه القضايا مضمونة، وكل ما عليه أن يحرر توكيلًا للمحامي، ويدفع مبلغًا بسيطًا كمصاريف للقضية، مع إقرار بالتنازل عن ربع المستحقات للمحامي حين يربح دعواه، ويصرف مستحقاته، ووافق (سليم) على هذا، وتم الأمر بعد مدة، وربح (سليم) الدعوى، واعتبر نفسه بذلك مدينًا لـ (ربيع) بجميل ما.

الآن – بعد كل هذه السنين – يقف (سليم) بمدخل مكتب (ربيع)، ولاحظ هذا الأخير أن السنين لم يكن لها آثار قوية على هيئة (سليم)، حيث لم يتغير فيه الكثير، وهذا لا يعني سوى أنه يعيش أحياة أفضل مما كان عليها بالماضي..

-"(ناهد) هانم تريد لقاءك!"

كذا تحدث (سليم)، لتثور التساؤلات بعقل (ربيع): من (ناهد) هانم؟ وأين توجد؟ ولمَ لا تأتي إلى هنا؟ ثلاث أسئلة متلازمة لا تنفك عن بعضها البعض!

وهكذا جاءته الأجوبة متضافرة هي الأخرى:-

-"(ناهد) هانم زوجة الأستاذ (مراد عز الدين)، موجودة الآن بالسيارة المركونة بالشارع الرئيسي قبالة مدخل الحي، وهي لا تستطيع القدوم إلى هنا بنفسها، لأنها لا ترغب في أن يراها أحد، فضلًا عن أن المكان كما تعرف لا يناسب سيدة في مقامها"

(مراد عز الدين)؟ أيعقل أنه هو (مراد عز الدين) الذي يعرفه الجميع؟ وانقبض قلب (ربيع) بقوة، فهو يخشى الأثرياء بشدة برغم كل شيء، وإن كان هذا الخوف ليس له ما يبرره، فهو لم يتعامل مع تلك الطبقة من قبل، لكنه يعرف بشكل غريزي أن التعامل معهم ليس محمود العواقب.

وبالرغم من توجسه وتردده انطلق مع (سليم) إلى حيث تنتظر السيدة، وفي خلال دقائق قليلة كان يقف مرتعدًا قبالة السيارة، لينزاح الزجاج بنعومة، ويطل ذلك الوجه الجميل المترف منها، ملقيًا بعض الأوامر:-

-"(سليم).. ابتعد أنت، أريد أن أحادث الأستاذ على انفراد.. وأنت.. نعم أنت.. أنت المحامي الذي يتحدث عنه، مضبوط؟ تعال اركب بجانبي.. هيا بسرعة"

وهكذا وجد (ربيع) نفسه في المقعد الخلفي من السيارة الفاخرة، يفصله عن تلك السيدة الجميلة حوالي نصف متر فقط، ويحاول أن يتحاشى النظر إليها بشكل مباشر.

-"اسمع.. أريد أن أستشيرك في أمر ما قانوني، هل يمكنني أن أنفصل عن زوجي مع الاحتفاظ بكافة حقوقي؟"

ارتبك (ربيع) أمام السؤال، رغم أن الجواب سهل بالنسبة له، لكنه يعرف أنها تتحدث عن (مراد عز الدين)، ذلك الأخطبوط واسع النفوذ، ما الذي يدفع امرأة مثلها للتفكير في الانفصال عن شخص مثل (مراد عز الدين)؟

- "هل يمكنني ذلك؟"

كررت السؤال وقد ضايقها صمته، وظنت أنه ربما ليس ضليعًا في القانون كما يوحي مظهره، وأن (سليم) الأحمق قادها إلى محامٍ أخرق لا يجيد مهنته، وهذا الانطباع بث فيها خيبة أمل مقيتة.

لكن (ربيع) أجاب مغالبًا ارتباكه:-

- "نعم يمكن نظريًا، رفع دعوى طلاق للضرر، بشرط ثبوت هذا الضرر واقتناع المحكمة به"

عادت تسأله بلهفة:-

-"وما الضرر الذي يقنع المحكمة؟"

هز كتفيه بلا معنى ثم قال:-

-"أي ضرر مادي أو معنوي يتعذر معه دوام العشرة، مثلًا: أن يمتنع الزوج عن الإنفاق عليها، أو وجود عيب فيه يجعل الحياة بينهما مستحيلة، أو أنه يعتدي عليها بالضرب، لكن هذا يتطلب وجود محضر أو تقرير طبي تقدمه الزوجة كمستند للمحكمة، أو الاستعانة بالشهود الذين شاهدوا واقعة الاعتداء عليها بالضرب، أو في حالة سجنه أو غيابه مدة طويلة، وفي كل الأحوال إن تقدير مدى الضرر، وما إذا كان قد يجعل دوام العشرة مستحيلاً من عدمه، هو أمر متروك للقاضي يعمل فيه سلطته التقديرية."

-"وماذا لو يكن أي من هذا؟"

نظر إليها (ربيع) مباشرة لأول مرة، الشعر الكيرلي الأسود القصير، الوجه الدقيق، العينان السوداوان الواسعتان، والبشرة البيضاء اللامعة، وذلك الثوب الأسود الضيق الذي يكشف عن أغلب ذراعيها، وكامل عنقها الرفيع، والجزء الأعلى من الصدر، علاوة على الساقين حتى ما فوق الركبتين، وذلك العطر النفاذ الذي ينبعث منها بصورة مثيرة زادت من ارتباك (ربيع) وتوجسه.

وكما هو الحال وفقًا لطبيعة الرجل الغريزية انعقدت في ذهنه على الفور مقارنة سريعة بين هذه الفاتنة التي تجالسه في سيارتها، وبين زبونته الفاتنة الأخرى التي تدعى (شهد)!

إن كثيرًا من الناس يظن أن المقارنة على إطلاقها تتعلق بالاختلاف بين الشيئين، لكن هذا خطأ كبير، إن أساس المقارنة ومناطها هو التشابه بينهما، لا الاختلاف، أنت لا تستطيع مثلًا أن تقارن بين الدولفين والصحراء الكبرى، إذ لا يوجد أي شيء مشترك بينهما، لكنك تستطيع أن تقارن بين الدولفين والحوت أو القرش، أو أحد أنوعهما، لأن قاعدة التشابه الأصلية موجودة ثم، وهي التي تقودك بعد ذلك لأن تنظر وتبحث عن أوجه الاختلاف، هل تفهم هذا المنطق يا سيدي؟

وفقًا لهذا المنطق: فإن (ناهد) والأخرى التي تدعى (شهد) تشتركان في قاعدة موحدة: فكلتاهما أنثى فاتنة مثيرة، وكلتاهما تنتميان إلى طبقة اجتماعية عليا، وكلتاهما تسعى للخلاص من زوجها، أما أوجه الاختلاف فليست بهذا الثبات والوضوح، فكلتاهما لها سماتها ورونقها الخاص، لكن الانطباع الأول الذي تكوّن لدى (ربيع) أن (ناهد) ولدت وترعرعت في الترف والرفاهية، أما (شهد) فالرفاهية والترف طرآ عليها في مرحلة ما من حياتها، ولم تولد فيهما، مجرد انطباع ليس له ما يستند عليه سوى الحدس.

الانطباع الآخر الذي تكوّن لديه أن كلتيهما تتحلى بالذكاء، لكن (ناهد) تستعمل ذكاءها بشكل مباشر، وهي صدامية إلى حد كبير، ولا تميل إلى المراوغة كثيرًا أو اللف والدوران، ولا تملك الكثير من الدهاء، أما (شهد) فهي حذرة جدًا، ولا يمكن لأحد الحصول على شيء منها بسهولة، وكان هذا أيضًا مجرد انطباع لا يستند إلى شيء سوى الحدس!

– "دعيني أنا أسألك بشكل مباشر: لماذا تريدين الخلاص من زوجك، أخبريني بالسبب الحقيقي مباشرة"

كذا قال (ربيع) وهو يحاول أن يتماسك ويتعامل مع الأمر كمحامٍ، لكنها كانت تحاول تجنب السبب الحقيقي قدر المستطاع، لذا قابلت سؤاله بسؤال مماثل:–

– "ماذا عن الخيانة؟ هل هي سبب مقنع للمحكمة؟"

تساءل (ربيع) مستوضحًا:–

- "تعنين أن زوجك يخونك؟"

- "نعم.. هذا ما أقصده، ومنذ زمن بعيد"

- "ويمكنك إثبات ذلك بشكل قطعي؟"

- "ماذا تعني؟"

- "هل يوجد لديك دليل قاطع على أنه يخونك؟"

- "لا.. لكن يمكنني الحصول على الدليل بسهولة".

- "كيف ذلك؟"

- "أعرف المكان الذي يفعلها فيه، لديه شقة في أكتوبر يظن أني لا أعلم عنها شيئًا، لكني أعرف كل شيء، كما أني أعرف بعض النساء اللاتي يخونني معهن، لكن .....!"

ردد (ربيع) وراءها:-

- "لكن ....؟!"

ترددت قليلًا ثم قالت:-

- "هو لا يخونني مع عاهرات كما قد تظن، هو يخونني مع سيدات مجتمع، زوجات رجال أعمال ومسئولين كبار يحتلون أعلى المناصب!"

انقبض قلب (ربيع) عندما سمع هذا منها، وفهم ما وراءه، إن محاولة الحصول على دليل كهذا يعني الدخول في حرب مع الكبار الذين بوسعهم فعل أي شيء لحماية سمعتهم، وتدمير الدليل ومن يمسك به!

لكنها قالت محاولة تهوين المسألة:-

- "لكن لا يعدم الأمر أن يفعلها مع واحدة من الصعاليك، قد يراها في أي مكان وتثيره، أو امرأة طموح تبحث عن فرصة"

هذا شيء لا يمكن الرهان عليه، كذا قال (ربيع) في نفسه، لكن المشكلة التي تنبه لها الآن أن مجرد رفع هذه الدعوى، وأيًا كان السبب أو الدليل الذي تستند إليه، يعني الدخول في حرب مع (مراد عز الدين) نفسه، ربما هي تملك ما تحتمي به منه، ثروة أو

عائلة أو معارف، لكن (ربيع) لا يستند إلى أي شيء يلوذ به في تلك الحرب، وسيدخلها عاريًا كما ولدته أمه، فهو مجرد محام صعلوك، لا قدرة له على مجابهة الكبار، كيف يتخلص من هذا الموقف؟

لكن من جانب آخر لا يزال الفضول يستعر في نفس (ربيع) ليعرف ما وراء هذا كله، لذا كرر السؤال الذي تجاهلته هي أول مرة:-

- "لماذا تريدين الخلاص من زوجك، أخبريني بالسبب الحقيقي مباشرة"

ظلت تنظر إليه بصمت برهة من الوقت، وشعر (ربيع) برائحة عطرها النفاذ تهيمن على المكان بقوة، بينما غارت عيناها الجميلتان أكثر، قبل أن تقول بلهجة غامضة:-

- "لهذا قصة.. قد تطول بعض الشيء!"

رد (ربيع) تلقائيًا:-

- "أنا منصت إليها"

لكنه في قرارة نفسه كان يوقن بأنه يرتكب خطأ جسيمًا بهذا الإنصات!

***

- "تراضيني وتغضبني.. وأنت على حالك!"

كان (مراد عز الدين) يدندن في نشوة تلك الأغنية العتيقة التي ما عاد أحد يذكرها في هذا الزمان، وهو في ترديده لا يزيد على هذا المطلع بأية حال، ويجد لذة كبرى في ترديد هذه الكلمات.

(سليم) أصبح يعرف عادات وطقوس سيده جيدًا، كلما رآه يغادر غرفته متأنقًا، ويضع ذلك العطر المستورد الفواح، ويسمعه يدندن بهذا المطلع المقتضب، يعرف على الفور أنه في طريقه إلى سهرة حمراء قد تمتد إلى ما بعد منتصف الليل، وأحيانًا حتى الفجر، وها هو السيد الآن – يراه – يغادر غرفته متأنقًا، ورائحة عطره باهظ الثمن تفوح لأبعد مدى، ولا يعرف (سليم) نوع هذا العطر، لكنه يعرف جيدًا المناسبات التي يضعه من أجلها، ويعرف أنه في طريقه إلى شقة أكتوبر، مع من هذه المرة يا ترى؟

زوجته (ناهد) تعرف، لم يسمعها (سليم) تتكلم، أو تشكو، أو تتشاجر معه، ولا توجه إليه اتهامًا بخيانتها، لكن من نظراتها المشمئزة إلى زوجها عرف (سليم) إليه أعرف أنها تعرف كل شيء، لكنها تتعمد أن تظهر عدم الاكتراث.

(سليم) يفكر في بعض الأحيان: أتراها حقًا لا تكترث؟ أتراها تفعل المثل، وتخونه هي الأخرى مع رجال آخرين؟ لكنه سرعان ما ينفض هذا التساؤل عن ذهنه، لأنه يعرف جيدًا أنه ليس من مصلحة الذبابة أن تكترث بخلاف دائر بين العناكب.

(مراد عز الدين) لديه سائق خاص يدعى (رجائي)، لكن في مثل هذه المشاوير يختار (سليم) بالتحديد ليكون سائقه لا أحد سواه، وفي الطريق يعرف (سليم) من تكون رفيقة السهرة من خلال محادثات السيد على الهاتف، فهو يتصل بها ليخبرها أنه في طريقه إلى الشقة، ويسألها إن كانت غادرت بيتها أم لا، وكم بقي لها حتى تصل، وغير ذلك.

والسيد لا يبالي بأن يسمع (سليم) هذه المحادثات، بل إنه في كثير من الأحيان يفتح الميكروفون ليتحدث دون أن يضع الجوال على أذنه، وهو يعرف أن (سليم) يسمع كل كلمة صادرة من الطرفين، ولكنه لا يكترث..

ليست ثقة بالتأكيد، فما عرفه (سليم) عن (مراد عز الدين) خلال السنوات التي عمل بهما معه يجعله يعي جيدًا أنه لا يثق حتى بأصابع قدميه، لكنه يعرف أن (سليم) لا خطر منه بالمرة، وأنه لن يجرؤ على قول شيء، هو مجرد صعلوك يخدم الملوك، ولا يقوى على تحديهم، أو مجرد إغضابهم!

وفي الطريق علم (سليم) أنها (سوزي).. أجمل عشيقة لسيده على الإطلاق، وأصغرهن سنًا، وأطولهن قامة، بالطبع عرف أنها هي من استماعه إلى محادثة السيد إياها عبر الهاتف، و(سليم) اعتاد أن يراها مع السيد مؤخرًا، هو يصل مع السيد قبلها، فينزل السيد ويصعد تلك البناية حيث تقع شقته الخاصة في الطابق الرابع، بينما يبحث (سليم) عن مكان مناسب يركن فيه السيارة، ويقبع في الانتظار، ويتشاغل بأي شيء يسليه، لكنه يختلس النظر من آونة لأخرى إلى مدخل البناية حتى يرى رفيقة السهرة، فهي تصل عادة متأخرة بعده، ويعرف أن السهرة ستبدأ بعد وصولها مباشرة، لكن على (سليم) أن ينتظر وقتًا طويلًا حتى ينتهيا مما يفعلانه، وفي بعض الليالي قد تمتد السهرة إلى الصباح، وذلك حين يتصل به السيد هاتفيًا ليقول له:-

- "اذهب أنت إلى بيتك يا (سليم)، وعد إليّ في الصباح لتقلني".

(سليم) لا يعرف أي شيء عن (سوزي) هذه، ولا يعرف حتى إن كان اسمها (سوزي) حقيقة أم أنه اسم مستعار أم للتدليل، لكنه يعرف أنها من الطبقة الثرية كما يبدو من ثيابها، ومن المصوغات المبهرة التي تضعها بأذنيها، وعنقها، وصدرها، ويديها، ويخمن أنها متزوجة أو مطلقة، لأن السيد لا يميل إلا إلى المتزوجات، أو اللاتي سبق لهن الزواج، ربما كانت الخيانة في حد ذاتها تمنحه المتعة المطلوبة!

فجأة – أثناء الطريق – رن الهاتف معه، ورآه (سليم) في مرآة السيارة ينظر إلى شاشة الجوال، على الأرجح كان رقمًا غريبًا غير مسجل، لأن السيد يتردد في الرد على الأرقام الغريبة، وقد استغرق وقتًا ليرد حتى كاد الرنين أن ينقطع، وترك الميكروفون مفتوحًا كالعادة، فسمع (سليم) ذلك الصوت الواثق المتحشرج يقول:–

– "كيف حالك يا (مراد)؟"

عبارة عادية جدًا، يقولها أي شخص لأي شخص، قريب أو غريب، ولا يمكن أن تثير هذا الانفعال الذي رآه على وجه سيده في مرآة السيارة، وكان انفعالًا متدرج الآثار، بدأ بضيق العينين مع انعقاد الحاجبين، ثم اتسعت العينان بطريقة غريبة، وتغير لون الوجه مائلًا إلى الأحمر، قبل أن يتغير مجددًا ويميل إلى الشحوب، مع توقف الأنفاس تمامًا!

ربما لو حكى أحد آخر لـ (سليم) أنه رأى ما رآه على وجه السيد (مراد عز الدين) في تلك اللحظات القليلة المتتابعة لما صدقه (سليم) على الإطلاق.. بل لو حلف له أحدهم – كائنًا من كان – أنه رأى الذعر في أعتى درجاته مرتسمًا على وجه هذا الأخطبوط الآدمي الذي يعمل معه طيلة سنوات، لما صدقه بالمرة.

قد يصدق (سليم) أن سيده (مراد عز الدين) يمكن أن يتفاجأ.. أو يدهش.. أو يحزن.. أو يغضب.. أو يفرح.. أو يجزع..كل المشاعر والانفعالات المحتملة التي يعرفها البشر، إلا الذعر.. هذا الشعور بالذات لا يتخيله (سليم) على هذا الرجل بالذات، ولو حُكِيَ له من آخرين لما صدقه، لكنه يراه الآن بعينيه في انعكاس المرآة، لدرجة أن (سليم) شك للحظات في المرآة، ثم في عينيه ذاتهما! (مراد عز الدين) خائف.. بل مذعور! هذه حقيقة مؤكدة لا يستطيع أن يكذبها حتى إن شك فيها لوهلة.

الصوت الواثق المتحشرج يستمر قائلًا بذات الثبات:–

– "هل نسيت صوتي يا (مراد)؟ أعذرك.. فقد مر وقت طويل جدًا! متى كانت آخر مرة يا ترى؟ هل تذكر؟"

مرّ الوقت بطيئًا جدًا على الجميع بما فيهم (سليم) نفسه، الذي وجد نفسه يتابع ما يحدث بقلق بالغ، بينما كان السيد ينظر مبهوتًا مذعورًا إلى شاشة الجوال، ولا يقوى على الرد، بعد برهة استعاد شيئًا من أعصابه، ورفع الجوال إلى أذنه، وقال بصوت مرتعد:-

- "(بركات)؟!"

لكنه من الصدمة نسي أن يغلق الميكروفون، رغم وضعه الجوال على أذنه، فجاء الصوت المتحشرج واضحًا وهو يقول:-

- "آها.. ما زلت تذكرني، هذا مفرح.. لكنك تقول: (بركات).. هكذا مجردًا، هل تذكر عندما كنت تصر على مناداتي بأستاذي، رغم مطالبتي إياك المستمرة بأن تكف عنها، وتناديني باسمي مجردًا؟ على أية حال ليس عندي مشكلة في هذا، نادني بما شئت، المهم أنك لا زلت تذكرني"

بدأ (مراد) يستعيد زمام نفسه، واعتدل في جلسته، وأغلق الميكروفون، وقال بصوت حاول أن يجعله ثابتًا:-

- "متى عدت؟"

لم يسمع (سليم) الإجابة للأسف، لأن السيد أغلق الميكروفون، واقتصر الأمر فقط على ردود (مراد) بيه وحده، وكانت تأتي متباعدة بعض الشيء..

- "لماذا لم تقل لي؟ طبعًا.. سعيد جدًا.. أتمنى لقاءك في أقرب.. وقت.. أرجو أن تكون بخير.. أكيد.. أكيد.. تحت أمرك.. أكيد.."

انتهت المكالمة أخيرًا، لكن السيد ظل ينظر في الفراغ ولا يزال الذعر مرتسمًا على وجهه، حتى وصلوا إلى البناية المنشودة أخيرًا، ولم يعرف (سليم) إن كانت عشيقته وصلت قبله أم لا، فهي تأتي بسيارة أجرة عادة، لا سيارتها الخاصة، ربما لكي لا يكتشف أحد معارفها وجودها هنا لو مر مصادفة وشاهد سيارتها، وفي الغالب هي تأتي متأخرة، بعد أن يكون السيد قد وصل قبلها.

ونزل (مراد عز الدين) من السيارة، وتوجه إلى البناية بخطوات متعثرة على غير العادة، ورآه (سليم) ينتظر المصعد، بينما انطلق هو يبحث عن مكان مناسب ليركن فيه، ويقبع منتظرًا الأوامر كالعادة.

عادة يقضى (سليم) الوقت في العبث بجواله وهو جالس داخل السيارة، أو يقف خارجها مستندًا إليها، أو بالتجوال في الشوارع القريبة المجاورة، ومشاهدة الناس والمتاجر والإعلانات، وإذا غلبه النوم عاد إلى السيارة وأغفى بها، والجوال قريب من أذنه، حتى يأتيه أحد الأمرين: الاستعداد لنزول السيد، أو الذهاب إلى بيته والعودة في الصباح، الأمر لا يخرج عن هذا أبدًا..

لكن هذه المرة لم تمض عشر دقائق حتى رأى السيد يغادر البناية بوجه مكفهر، وأخذ يتلفت حوله بحثًا عن السيارة، فخرج (سليم) مسرعًا ورفع يده وهامته ليراه السيد، وبالفعل رآه وأقبل نحوه، وصاح به وهو يلقي بجسده داخل السيارة:-

- "على البيت بسرعة.. بسرعة!"

وللمرة الأولى على الإطلاق، منذ بدأ (سليم) عمله مع السيد ودّ لو سأله عن حقيقة ما يحدث!

***

الفصل الرابع عشر

لقد قرأ (ميلاد) رواية (مرتفعات ويذرينغ) عشرات المرات يا سيدي، وكان في البداية لا يفهم: ما الذي يجعل كائنًا وغدًا مثل (هيثكليف) يضعف هذا الضعف أمام (كاترين)؟ وما الذي يجعله يظل وفيًا لذكراها نحو عشرين سنة، ولا يستريح حتى يلحق بها؟

(ميلاد) محاسب، حياته كلها تدور حول (١ + ١ = ٢)، لهذا لا تتوقع منه أن يستوعب مثل هذه الأمور من أول وهلة، لكن إصراره على ملاحقة فتاة المترو كان محيرًا له قبل أي شخص آخر، لقد تخلى عن سيارته نهائيًا تلك الأيام، وصار المترو هو وسيلة مواصلاته المفضلة، كل يوم صباحًا يتواجد هناك في نفس الموعد، ليبحث عن تلك الفتاة صاحبة الرواية، أحيانًا كان يجدها، ويظل طيلة الطريق يحدق بها دون أن تنتبه هي إليه، وأحيانًا كانت تفوته وتركب مترو آخر غير الذي ركبه هو، ليظل هو طيلة اليوم يشعر بضيق واختناق، والمعضلة التي ظلت تواجهه: أنه يعرف محطة نزولها، لكنه لا يعرف محطة ركوبها من الابتداء، ولهذا يحدث أن تفوته في بعض الأيام.

كان (ميلاد) يحترق فضولًا ليعرف عنها أي شيء، اسمها.. عمرها.. سبب ركوبها المترو ونزولها تلك المحطة بالذات، وأهم سؤال كان يحرقه ويرغب في إطفائه بطرحه عليها: لماذا هذه الرواية بالذات؟ لمَ لا تقرأ سواها؟

استغرق الأمر نحو شهرين، و(ميلاد) لا يكف عن ملاحقة تلك الفتاة التي لا يعرف عنها شيئًا بين عربات المترو، دون أن تلاحظه هي في أية لحظة، ومع الوقت بدأ يعرف سر ضعف (هيثكليف)، وبدأ يوقن أن ما أصاب (هيثكليف) تجاه (كاترين) هو عين ما أصابه تجاه هذه الفتاة المبهمة، ومع الوقت تولد لديه سؤال آخر أشد صعوبة وتعقيدًا من أي سؤال آخر: إلى متى سيستمر على هذا النحو؟ وما الخطوة التي ينبغي عليه اتخاذها ليتخلص من شباك تلك الملاحقة العنكبوتية اللزجة؟

أدرك (ميلاد) أن عليه أن يبادر، يبادر بماذا بالضبط؟ لا يدري.. فقط عليه أن يبادر ويخطو خطوة تجاهها، ولكنه لا يعرف كيف يفعلها، وبعد كثير من التفكير والتخبط والتردد، قرر أن يترك الأمر للظروف، بل للقدر..

وقد منحه القدر بالفعل فرصة ذات صباح، حين جلس في مواجهتها، وهي كالعادة منهمكة في مطالعة روايتها، حتى اقتربت محطة وصولها، ونهضت لتستعد للنزول، فسقطت منها بطاقة ما كانت – فيما يبدو – تضعها داخل طيات الرواية، فهب (ميلاد) بسرعة والتقط تلك البطاقة قبل أن يطأها أحدهم بحذائه، وحين نظر فيها تبين له أنها بطاقة دعاية لأحد الأطباء، وبدا له اسم ذاك الطبيب مألوفًا للغاية..

كان القطار قد بلغ المحطة، وأوشكت الأبواب أن تنفتح أوتوماتيكيًا، فأسرع (ميلاد) يركض تجاه الفتاة صائحًا:–

– "يا ..... آنسة! يا .....!"

وانتبهت هي لندائه، والتفت إليه لأول مرة، والتقت العينان أخيرًا في لحظة خاطفة، فبهت (ميلاد) لبرهة، وارتبك وتفصد جلده عرقًا بصورة مريعة، قبل أن يفيق لنفسه، ويقول متلعثمًا:–

– "لقد ... سقطت .... هذه.... منك!"

انتبهت الفتاة إلى البطاقة، فمدت يدها إليه وتناولتها منه، ثم أومأت برأسها قائلة:–

– "شكرًا"

ثم غادرت المترو وانغلقت الأبواب بعدها كأنها الستار يسدل على ذلك المشهد الخاطف عميق التأثير.

نعم هذا كل ما حظي به (ميلاد) منها، فقط كلمة (شكرًا)، ومع ذلك أحس (ميلاد) أنه قد حظي بالكثير جدًا، وأن هذا اليوم سيخلد في ذاكرته إلى أن يفارق الحياة.. ربما تشعر يا سيدي بتفاهة هذا الأمر، وتقول: وما الذي غنمه الفتى من هذا المشهد؟

سأقول لك: بمقاييسنا أنا وأنت: لم يحصل على شيء ذا قيمة، لكن بمقاييس شخص يمتلك قلبًا بكرًا مثل (ميلاد) أظنه قد غنم الكثير، والكثير جدًا، يكفي أنه سمع صوتها لأول مرة، ولا تستهن بهذه الكلمة الوحيدة التي حصل عليها منها، فقد ساعدته كثيرًا فيما بعد في صياغة عشرات الأحلام والخيالات في صحوه ومنامه.

لقد أمست تلك الفتاة بطلة أحلام (ميلاد) طيلة الوقت، وظل ينسج الأحلام التي تجمعه بها، لقد أجرى معها عشرات الأحاديث، وحظي بعشرات اللقاءات، وعرف معنى أن يتغزل رجل بامرأة من خلال تلك اللقاءات الخيالية، وذاق سحر صمتها إزاء غزله، وابتسامتها الساحرة، وحمرة الخجل التي تورد خديها الناعمين، بل إنهما تشاجرا وتخاصما عشرات المرات، لكن كان هو دائمًا من يبادر بالمصالحة، وكانت تقبل مبادرته كل مرة..

هل هو جنون؟ هذيان؟ لا يهم.. المهم ما تركه هذا الجنون أو الهذيان في نفسه من تأثير، لقد اكتشف (ميلاد) لأول مرة أن حياته ذات معنى، وأنه يعيش من أجل شيء.. ليس أي شيء، بل شيء في غاية الجمال والبراءة.

***

لكن أتدري يا سيدي ما مشكلة الأحلام في حياتنا؟ أنها لا تدوم طويلًا، وما أسرع ما نفيق منها، وأيدينا قابضة على الخواء!

متى بدأ (ميلاد) يفيق من أحلامه؟ عندما اختفت فتاة المترو فجأة دون أثر؟ لا بل قبل ذلك، فجأة شعر (ميلاد) أن شيئًا ما ليس على ما يرام، وأن هذا الوجه النضر الناصع الذي يطالعه كل صباح بدأ يعتريه الذبول رويدًا رويدًا، لاحظ (ميلاد) هذا بشكل يزداد رسوخًا يومًا بعد يوم، حتى اختفى ذلك الوجه الذابل تمامًا وبصفة نهائية!

ماذا حدث؟ وأين ذهبت؟ لا يوجد أي جواب على الإطلاق!!

صدق أو لا تصدق يا سيدي: أن (ميلاد) كان يكره الشمس منذ طفولته، بالرغم من علمه أن حياته وحياة الكوكب كله متوقفة عليها طلوعها.

منذ صغره وهو يكره ذلك الوهج الساطع الذي يخطف الأبصار، ولا يجرؤ على التطلع إليه، ويكره تلك الحرارة المحرقة التي تنبعث منها، كأنها الجحيم ينصب فوق رأسه، ويكره ذلك الأثر الحارق الذي تحدثه في بشرته الحساسة إذا تعرض لها طويلًا، وبمجرد طلوع الشمس في الصباح يشعر بالضيق والاختناق، حتى وهو بعيد عن أشعتها، ولا يشعر بالراحة إلا مع الغروب، حينها فقط تكون الشمس أجمل ما يكون!

بعض الحمقى – في نظر (ميلاد) – يعتبرون الغروب رمزًا أو إشارة إلى النهاية بمعناها المطلق، لكن (ميلاد) يراه رمزًا وإشارة إلى بداية كل شيء جميل، إن يومه الحقيقي يبدأ من الغروب، وما قبل ذلك غير محسوب..

هل كان ظهور هذه الفتاة في حياته غروبًا؟ يعتقد أنه كذلك، لأنه لم يعد هو، شيء ما تغير في كينونته، ولن أقول في شخصيته، لأن شخصيته لا تزال كما هي مع الجميع، التغير حدث في الداخل، وإن كان لا يستطيع تحديد كنه هذا التغير!!

فقط يعرف أنه صار شخصًا آخر لم يألفه من قبل، حتى أحلامه وخيالاته ذاتها تغيرت، واستحوذت عليها فتاة المترو بأكملها..

هل فتاة المترو، أم فتاة (ويذرينغ) إن صح التعبير؟!

لكن السيئ دائمًا: أن الغروب زمنه قصير، هو أقصر فترات النهار على الإطلاق، هكذا كل شيء جميل في حياتنا يمضي سريعًا، لقد اختفت فتاة المترو كأنها حلم أفاق منه، ولا يمكنه استعادته، مشكلة الأحلام أنها لا يمكن استعادتها أو استئنافها، ظل يستقل المترو يوميًا ليبحث عنها في جميع العربات ولا يعثر لها على أثر، وكان شعورًا سيئًا يترسخ في نفسه كل يوم: كأنه شخص استلقى على فراشه الوثير ذات ليلة، وصحا ليجد نفسه طريحًا على الرمال الملتهبة وسط صحراء جرداء!!

هذا الشعور ظل يتمكن من روحه كل يوم وهو يبحث عنها ولا يجدها، ولا يجد لها أدنى أثر!

هل غيرت مواعيدها؟ هل أخذت إجازة من عملها الذي لا يعرف عنه شيئًا؟ قرر أن يأخذ إجازة من عمله ويتفرغ لمراقبة محطة نزولها طيلة النهار وجزءًا من الليل، يتفحص وجوه المغادرين ولكن دون جدوى.. لقد تلاشت تماما من الوجود، وانتهى الغروب الرائق..

هل كان حلمًا واستيقظت منه؟ لقد فكر حقيقة في هذا الاحتمال، لكن كل شيء داخل كان يؤكد له أن الأمر أكبر وأعمق من مجرد حلم! ولو كانت حلمًا لعرف كيف يعيد صناعته وصياغته من جديد، لكنه كانت غروبًا حقيقيًا جميلًا رائقًا وتلاشى أمام وهج شروق الحقيقة الحارق!

والأسوأ أن أحلامه هي الأخرى بدأت تتسرب من وعيه ووجدانه، وانسحب منها وجهها الناصع البريء، ولم يبق منها سوى ذلك الوجه الذابل المغضن بتعابير الألم والإنهاك والشحوب البغيض!

***

- "هل لك أصدقاء؟"

سؤال غير معتاد من زبائنه، فلا أحد يهتم بأي شيء شخصي يخص محاميه، لماذا تهتم تلك الفاتنة بسؤاله عن أصدقائه؟ أم أنها في الحقيقة تهتم به هو؟

كذا تساءل (ربيع) وهو يقف في مواجهة ربة الجمال التي قذف بها القدر إليه! هل هي حقًا تهتم بأن تعرفه عن قرب؟ تريد أن تعرفه كإنسان لا محامٍ، إن هذا يثلج صدره إلى حد كبير..

إن (شهد) لا تمثل له قضية يود أن يربحها، بل حلمًا وغاية ورغبة.. عادة هو لا يثق ثقة مطلقة بالنساء اللاتي يأتينه يبحثن عن الطلاق أو الخلع، مهما بكت إحداهن وناحت وأظهرت الضعف والانكسار، ففيهن - وربما أكثرهن - ممثلات بارعات، جاحدات الفضل وناكرات الجميل، أو متطلعات إلى حياة أفضل مع زوج آخر أكثر ثراء وجاذبية.

لكن (شهد) – فاتنته – تصر على زيارته بمكتبه بمناسبة وبدون مناسبة، على فترات متقاربة، إنها حتى الآن لم تحرر له توكيلًا رسميًا بالشهر العقاري، ولم تقدم له أي بيانات عن زوجها، ولا تفعل شيئًا سوى الحديث عن التفاصيل القانونية التي تقودهما إلى الحديث عن زوجها ومعاملته السيئة إياها، مع إظهار ترددها وتخوفها من الإقدام على تلك الخطوة، برفع دعوى الطلاق للضرر أو الخلع.

كان الأمر في البداية مفهومًا، لكن الآن أصبح محل شك، وبدأ (ربيع) يفكر في احتمال أنها تريده هو، ويدهش له، فلم يحدث طيلة عمره أن انجذبت إليه امرأة عادية، فما بالك بربة جمال ذات سحر فائق كـ (شهد)؟

لكنها تتعمد أن تزوره بمكتبه بمعدل مرة كل أسبوع تقريبًا، وهذا يسحره بشدة، مثل كل شيء يتعلق بها.. صوتها العذب الذي لم يسمع أحلى منه قط، أنوثتها الراقية والناعمة التي لم أر مثلها قط، سمتها الصبوح والمثير، نظراتها النافذة، مع تلك الأهداب الطويلة الكحيلة التي تحيط بها، كل شيء فيها يثير جنونه بقوة، بعنف.. كان يقول لنفسه كلما وقفت أمامه: "يجب أن أتماسك.. يجب أن يتماسك..!"

– "نعم.. لي أصدقاء بالتأكيد، وإن كنت لم أعد أراهم كثيرًا.."

نهضت من مقعدها، توجهت نحو الرف الذي يضع عليه كتب القانون الضخمة، ذات الأغلفة السميكة، والورق الأصفر، طبعا هو يستعملها للزينة فقط، وإضفاء مظهر المحامي المطلع أمام الزبائن، أما الكتب التي يستعملها فعلاً لمعرفة بعض المواد والتفاصيل القانونية فيضع بعضها هنا على مكتبه، والبعض الآخر في بيته على الطاولة الصغيرة المجاورة لسريره، ليوفر على نفسه مشقة النهوض لجلبها..

تساءلت وهي تمد أصابعها الرقيقة تتحسس بها الكتب:–

– "لماذا؟"

استغرق برهة حتى يستوعب السؤال، وإلى أين يتجه، في الواقع كان مشغولًا بمراقبتها هي أكثر من ملاحظة الكلمات التي تخرج منها، وإن كان لا يزال يتساءل بدوره: لماذا هي مهتمة بهذه الأمور؟

– "مشاغل الحياة.. كل إنسان له ما يشغله"

التفتت إليه بعينيها الواسعتين النافذتين المحاطتين بالأهداب الطويلة الكحيلة، وقالت:–

– "ليس على حساب الصداقة.."

ثم عادت تنظر إلى الكتب، وهي تضيف:–

– "صداقتنا نحن النساء أصدق وأعمق، ومع ذلك نعرف أنها ليس لها عمر، بمجرد أن تتزوج إحدانا تصير حكرًا على زوجها وأولادها، كما أنها في الغالب تنتقل إلى مكان آخر بعيد، وتأخذها دوامة الحياة، ويصبح خروجها من البيت مقيدًا بشدة، ومصحوبًا بشجار

في كثير من الأحوال، أو بعذر ضروري في كل الأحوال، ولا يكون إلا لأماكن محددة، وهكذا تنتهي كل صداقات ما قبل الزواج.."

عادت تلفت إليه ولكن بكامل جسدها هذه المرة، وهي تستطرد:-

- "أنتم الرجال من تضعون هذه القيود علينا، لكنكم غير ملزمين بها، فماذا يحول بينكم وبين أصدقائكم؟"

ربما هي على حق نظريًا، لكن عمليًا ما يمنعنا الحياة ومشاغلها، والسعي وراء لقمة العيش، وأشياء أخرى، لكن هذا لا ينطبق على رفقة (ربيع)، فـ (محمود) اختار أن ينعزل عن الحياة نهائيًا، رغم أنه لا يعمل، ولا يوجد شيء يجبره على العمل، حبس نفسه في غرفته الشبيهة بالقبو المظلم، وصارت علاقاته بالعالم الخارجي كلها محصورة خلف شاشة اللاب التوب أو الجوال، أما (جمال) فأكثرهم انشغالًا بحكم عمله، حتى في راحته ينام والهاتف بجوار أذنه، ينتظر في أية لحظة رنة استدعاء له، ليشارك في حملة مداهمة، أو ملاحقة أحد المطلوبين، أو جمع تحريات عن أحد المشبوهين، لم يعد (ربيع) يراه إلا مصادفة، أو إذا احتاج إلى ملء خطاب تحريات عن زوج أو طليق إحدى موكلاته!

و(عادل) لم يعد يلقاه إلا مصادفة هو الآخر، ولا يعرف ما يشغله حقيقة، فعمله لا يتعدى خطبة الجمعة بمسجده البعيد، ودرس فقهي مرة أو مرتين بالأسبوع عقب صلاة المغرب أو العشاء، ولا يعمل بأي شيء فيما عدا ذلك، (ربيع) يعتقد أنه مشغول بالنساء عبر مواقع التواصل، فالنساء هن جمهوره الوحيد كداعية، وغالبًا لا أحد من الرجال يثق بعمله أو فتواه!

ليس لـ (ربيع) أصدقاء – بمعنى كلمة أصدقاء – سوى هؤلاء، ولم يحاول اكتساب صداقات طيلة مراحل حياته سواهم!

عاد يقول في شيء من الشرود:-

- "مشاغل الحياة.. لكننا نلتقي على فترات، ومهما انشغلنا وافترقنا نحتفظ بالود والمرح فيما بيننا حين نلتقي، كأننا لم نفترق قط."

ابتسمت في عذوبة، وقالت:-

- "الصداقة جميلة.. خاصة صداقة الطفولة"

ثم لم تلبث أن زمت شفتيها الجميلتين، وأضافت بأسى:-

- "كل صديقات الطفولة ذهبن عني، ولم أعد أعرف أي شيء عنهن!"

إنها تشعر بالوحدة مثله، يبدو أن زوجها لم يعرف كيف يملأ هذا الفراغ بداخلها، وقد قرر أن يتعامل معها كجسد فحسب، بل زاد من وحدتها ونفورها من العالم، وكذا نفور العالم منها، فالناس لا تحترم المرأة التي تقبل على خلع زوجها، مهما كانت الأسباب التي دعتها لذلك..

- "أنا الآن أقيم في بيت أهلي، أمي غاضبة مني، خاصمتني، وكذلك أخي تعارك معي، لكني سبق أن استسلمت لهم في الماضي ليقرروا مصيري، هم من أصروا على إتمام هذا الزواج، وهذا ما صرت إليه، ولن أسمح لأحد بالتحكم في حياتي مرة أخرى، وسأواصل هذا الطريق إلى النهاية، مهما كانت العواقب!"

فاتنتي صلبة للغاية، كذا قال (ربيع) لنفسه، إنها حازمة رغم رقتها، قادرة على اتخاذ القرارات المصيرية، إنها الأنثى المثالية التي طالما حلم بها، إنها هي.. هي.. آه يا (شهد).. لو تعرفين أنك استوليت على عقلي وقلبي تمام الاستيلاء، بحيث لم يبق لي من نفسي شيء! فأنا لا أفكر إلا بك، لا تبرحين خيالي أبدًا، في صحوي ومنامي، تارة أسامرك، وتارة أضاجعك، وتارة أضاحكك، بكل الأحوال لا أفارقك أبدًا، ولا ينفصل خيالي عنك.. ترى هل تبادلينني نفس الشعور؟ لماذا تتساءلين عن أصدقائي وحياتي؟

- "حدثني عن أهلك.. أسرتك!"

ثم تستدرك في نعومة:-

- "إن كنت لا تمانع طبعًا!"

لا أمانع أي شيء، سليني روحي وفؤادي، وإن كنتِ حصلتِ عليهما بالفعل، دون هبة مني، وإن كان ليس في أسرتي ما يجعلني أفخر بالحديث عنه، لكن بما أنها رغبتك

سأفعل، سأخبرك بكل شيء ترغبين في معرفته، لن أبخل عليك بشيء.. تريدين أن تعرفيني عن قرب، وأنا أحب جدًا أن أعرفك بنفسي، لكني في المقابل أرغب في أن تعرفيني بنفسك عن قرب!

قالت وهي تداعب مكتبه البسيط المتواضع بأناملها الرقيقة:-

- "كنت أظن أن عدة المرأة التي تخلع زوجها تماثل عدة المطلقة، لكني سمعت شيخًا سلفيًا في التليفزيون يقول: إن عدة الخالعة حيضة واحدة، أعرف شيخًا أزهريًا لجأت إليه وسألته عن الأمر، فأخبرني بأنه تحرى عن الأمر، واكتشف أن الأمر فيه خلاف بين الفقهاء!"

لأول مرة يسمع (ربيع) هذا الكلام، ربما هو من الناحية الشرعية يستند إلى منطق، عدة الطلاق تكون أطول لاحتمال أن يراجع الزوج نفسه، ويراجع الزوجة إلى عصمته، لكن الخلع ليس فيه فرصة للرجوع، وتكفي حيضة واحدة لإثبات أنها ليست حبلى منه، لكنه لا يعتقد أن القانون يفرق بين عدة المختلعة والمطلقة، على كل حال سيبحث هذا الأمر، ربما يسأل (عادل) فهو رغم كل شيء خبير بما يخص النساء!

لكن ما لفت انتباه (ربيع) أن فاتنته تتحدث معه في هذه الأمور دون حرج، تتحدث معه في الحيض والأمور التي تخص النساء، ماذا يستنبط من هذا سوى أنها تميل وتطمئن إليه؟! (عادل) كان يقول له دومًا: المرأة تعتبر حبيبها طبيبها ومعلمها وصديقها، ولا تتحرج من محادثته في أخص خصوصياتها، فهل هو الآن في هذا الموضع منها؟

آه يا (شهد).. لو تعرفين أنك استوليت على عقلي وقلبي تمام الاستيلاء، بحيث لم يبق لي من نفسي شيء! أنا لا أفكر إلا بك، لا تبرحين خيالي أبدًا، في صحوي ومنامي، تارة أسامرك، وتارة أضاجعك، وتارة أضاحكك، بكل الأحوال لا أفارقك أبدًا، ولا ينفصل خيالي عنك..

ترى هل تبادلينني نفس الشعور؟!

***

كان (مراد عز الدين) في أتعس حال رآه (سليم) عليها طيلة مدة عمله معه، لقد عرفه دائمًا ذلك الرجل الذي يهتم كثيرًا بمظهره أمام الناس، ويحب أن يبدو قويًا واثقًا، ومدركًا لكل شيء، كما يحب أن يكون دائمًا أنيقًا وسيمًا مهندمًا.. لكنه الآن يبدو عكس هذا كله!

قال له هذا المساء:-

- "خذ مفتاح السيارة، ستقلني إلى مكان ما!"

هذا لم يكن يحدث إلا في ليالي المتعة، لكنه الآن في هيئة لا توحي على الإطلاق بإقباله - أو حتى تفكيره مجرد تفكير — في أية متعة.. لقد قضى الأسبوعين الماضيين في اتصالات وعراك مستمر، وفي جميع الاتجاهات، كان كالكلب المسعور الذي ينقض على كل من يقترب منه، تشاجر مع زوجته، وابنته، وخدمه، وأصدقائه، حتى (سليم) نفسه لم ينج من توبيخه وزجرته، دونما أي أسباب مطلقًا، وبالطبع لم يكن بوسع (سليم) سوى الصمت وتقبل الأمور.

اسم (بركات) كان يتردد كثيرًا على لسانه في جميع اتصالاته، وفي جميع هذيانه، كان يطالب بعض قيادات الشرطة بالقبض عليه، ويبدو أنه لم يكن ثمة ما يدعوهم للقيام بذلك، وقد أثار هذا سخطه جدًا، لدرجة أنه ظل يصرخ في العديد من المحادثات كالمجنون قائلًا:-

- "ومنذ متى تحتاجون لسبب للقبض على أحد.. إنه خطر.. خطر.. لديكم ملف كامل عنه وعن تاريخه.. يجب أن تعتقلوه وإلا ستندمون جميعًا!"

ويبدو أن هذا الذي قاله لم يحدث حتى هذه اللحظة، وهذا ما جعله يفقد اتزانه وعقله تمامًا..

(مراد عز الدين) مذعور! لم يكن (سليم) يتخيل أبدًا أن مثل (مراد عز الدين) قد يصاب بالذعر مثل بقية الناس، ومن هذا الـ (بركات) الذي استطاع أن يسبب له كل هذا الذعر؟ وكيف؟

الصوت الذي سمعه (سليم) في الهاتف قبل عدة أيام كان صوتًا متحشرجًا، يبدو كصوت شخص عجوز معتل الصحة، مثل هذا لا يمكنه أن يسبب الذعر لأي مخلوق، خاصة إذا كان هذا المخلوق أخطبوطًا عاتيًا مثل (مراد عز الدين)، لكنه حدث!

الليلة الماضية كان السيد المذعور في أسوأ حالات هذيانه وانهياره وجنونه، جاء برقعة الشطرنج، وظل يلاعب نفسه، ثم سكر وراح يقذف بقطع الشطرنج في كل اتجاه، وضرب بالرقعة نفسها في الجدران مرارًا، حتى أن (سليم) ملئ منه رعبًا، وخشي أن يضربه بأي شيء يقع في يده!

بعد أن هدأ السيد إلى حد ما قال له بلسان ملتوٍ من أثر الخمر:-

- "هل لعبت الشطرنج من قبل يا (سليم)؟"

نعم لعبها (سليم) قديمًا في مراهقته وشبابه، لكنها لم ترقه، ولم يجد فيها متعة، أو على الأصح لم يحبها لأنها كانت تفوق قدراته العقلية، واكتشف أن الشطرنج هو اللعبة الوحيدة التي تكون فيها الهزيمة مهينة لأقصى مدى، لأن الخسارة لا تحدث إلا لأنك الأقل ذكاء، ولا يوجد عذر آخر، ولا يمكنك التذرع بالحظ، أو بأي عامل خارجي، وقد كان (سليم) يخسر فيها دائمًا، لذا لم يحبها على الإطلاق.

لكن السيد استطرد قائلًا:-

- "في الشطرنج إذا استطعت أن تفرض على خصمك خطواته فأنت بارع، أما إذا استطعت أن تسيّر خصمك حسبما تريد، وهو متوهم أنه يتحرك بإرادته هو، فأنت عبقري!"

وأمسك بالقطعة الوحيدة التي كانت متبقية بالقرب منه، بعد أن طوح ببقية القطع، ورفعها أمام عينيه، وضغط عليها بأصابعه بقوة، ثم أردف:-

- "(بركات) علمني هذا! وقد أجدته باقتدار."

مرة أخرى يطل هذا الـ (بركات) في حديثه، ألقى بالقطعة نحو (سليم)، الذي سارع بالتقاطها في الهواء، وتبين له أنها قطعة الملك، وسمع سيده يقول بينما هو ينظر إلى تلك القطعة:-

- "كش ملك!"

هذه الليلة كان (مراد عز الدين) أكثر تماسكًا ظاهريًا، صحيح أن وجهه شاحب بعض الشيء، وذقنه نابتة، ولم يكن مهندم الثياب كعادته، ولا يضع عطرًا من تلك العطور الثمينة الفواحة التي يستخدمها عادة، وعيناه تبدوان حمراوين جدًا، لكنه أكثر تماسكًا بكثير من الليلة الماضية.

خلال قيادته السيارة لم يحاول (سليم) قط النظر إلى سيده في المرآة، وكان أستمع لتوجيهاته وينفذها دون أن ينظر، وقد أمره السيد بالتوجه إلى مكان ما بالمعادي، للمرة الأولى يذهب إليه (سليم) معه، وفي هذا الشارع الواسع النظيف أمره بالتوقف.

كان الوقت يدنو من منتصف الليل، والمكان شبه خاو، لكن الإضاءة جيدة، بعد دقائق قليلة أقبلت عليهما مركبة سوداء، لتتوقف قريبًا منهما، وتنبه (سليم) إلى هذا التحفز والتوتر الذي صار عليه سيده عند مرأى المركبة.

لكنه نزل من السيارة، وقال:-

- "ابق مكانك، لا تبتعد.."

ثم تقدم بضع خطوات ليقف في مواجهة المركبة، على مسافة قليلة منها، وبعد قليل انفتح باب المركبة الجانبي، ونزل منه ذلك المقعد المدولب ذو العجلات، يجلس عليه رجل ضئيل نحيل، مجعد الوجه، أشيب الشعر، يرتدي نظارة سميكة، وكان هناك رجلان قويان، يساعدانه على النزول بمقعده من جانب المركبة، ودفعه أحدهما من الخلف ليقترب من موقف (مراد عز الدين)، بينما ظل الآخر واقفًا بجوار المركبة.

ومن الوهلة الأولى أدرك (سليم) أن ذلك الضئيل النحيل الأشيب هو ذلك الـ (بركات) الذي سمعته صوته منذ أيام، عرف هذا حتى من قبل أن يتحدث الرجل، ويقول بصوته المتحشرج الواثق للغاية:-

- "(مراد عز الدين).. أخيرًا التقينا!"

كان صوته واثقًا بشكل مزعج للغاية، لا يتناسب أبدًا مع ضعفه واعتلاله، والمقعد الذي يجلس عليه. وكان السيد (مراد) يقف أمام سيارته، وبالتالي كان يولي (سليم) ظهره، فلم يتمكن هذا الأخير من رؤية ملامحه ونظراته، لكنه تمسك بالصمت، ولم يتحدث حتى على سبيل الترحيب.

واصل ذلك الـ (بركات) الحديث، بصوته الواثق المزعج:-

- "وبدون حراسة.. ألم تخش أن أغدر بك يا (مراد)؟ أنت تعلم جيدًا أنك تستحق هذا!"

وأشار إلى الرجل الذي كان يدفع مقعده من الخلف، والآخر الذي يقف خلفهما بجوار المركبة، وقال:-

- "معي رجلان هنا، قد يكونان مسلحين.. ألم تفكر في هذا؟"

ثم أشار باتجاه (سليم) الذي لا يزال قابعًا داخل السيارة خلف عجلة القيادة، وقال:-

- "هل هذا سائق أم حارس شخص مدرب، سيفتك بنا عند إشارتك؟ اعذرني إذا توقعت الغدر منك، فلديك سوابق لا تخفى على كلينا.."

ما زال السيد (مراد) متمسكًا بالصمت، ولا يستطيع (سليم) أن يرى نظراته، وهل كان ينظر إلى محدثه نظرة المذعور أم نظرة المتماسك!

ضحك ذلك الـ (بركات) بطريقة سمجة للغاية، ثم سعل بقوة، قبل أن يقول:-

- "بالنسبة لي لم أعد أخشى غدر أي شخص، ما الذي يمكن أن يخشاه عجوز مقعد، مريض بالسرطان، مثلي؟"

صمت برهة ثم قال بصوته الواثق:-

– "نعم يا (مراد)، إنها أيامي الأخيرة بالحياة، السرطان يلتهمني حيًا، ولم أشأ أن أغادر الحياة قبل أن أودعك.."

أخيرًا تحدث السيد (مراد)، وخرج صوته جافًا للغاية، وهو يقول:–

– "ماذا تريد مني؟"

ابتسم ذلك الـ (بركات) بسماجة وقال:–

– "يبدو أنك لم تكن تسمعني، قلت: لم أشأ أن أغادر الحياة بدون أودعك، سأموت خلال وقت قصير يا (مراد).. يا تلميذي النجيب!"

مرة أخرى قال (مراد) بذات الصوت الجاف:–

– "ماذا تريد مني؟"

تحولت ابتسامة ذلك الـ (بركات) السمجة إلى ضحكة أكثر سماجة، أعقبها سعال قوي، استغرق هذا السعال وقتًا قبل أن يتماسك، ويقول بنبرة أكثر جفافًا من نبرة (مراد):–

– "كفارة.."

لم ير (سليم) وجه (مراد)، لكنه واثق من أنه بهت للكلمة!

استطرد ذلك الـ (بركات) بقسوة:–

– "أريد منك: كفارة.. أريدك أن تكفر عن ذنوبك، وما أكثرها يا (مراد).. لكن أنت تعلم الذنب الذي يعنيني أن تكفر عنه أكثر من غيره.. اختر أنت الكفارة التي تناسبك، سأكون كريمًا معك بعكسك أنت معي!"

من الواضح أن مقاومة (مراد عز الدين) لم تصمد أكثر، فتخلى عن جفاف نبرته، وقال بعصبية شديدة، اهتز لها كل جسده:–

– "يبدو أن السرطان أفقدك عقلك، هكذا هو الأمر إذن، علمت بقرب موتك فجننت، أية كفارة تلك التي تريدني أن أدفعها؟ وأي كرم؟ أنا الذي كنت كريمًا معك لأني وافقت على هذا اللقاء بشخص مثلك، ويبدو أني أخطأت في هذا.."

قالها ثم تراجع تجاه سيارته، كأنه ينهي الحوار بذلك، لكن ذلك الـ (بركات) استوقفه قائلًا:-

- "(مـراد).. صـدقني أنـا أمنحـك فرصـة لا تـستحقها، وأنـت تعلـم جيـدًا أنـك لا تستحقها"

التفت إليه (مراد) بيه بعصبية وقال:-

- "أية فرصة؟ عم تتحدث؟"

هز ذلك الـ (بركات) رأسه بسماجة، وقال بأشد نبراته ثقة وجفافًا:-

- "لا تسل أسئلة تعرف إجابتها يا (مراد).. لقد خنتنا جميعًا، وخنت مبادئنا وأحلامنا، بل خنت مبادئك أنت نفسك، لم يكن هذا ما تخطط له معنا، كنت تريد مثلنا الخير لهذا البلد البائس، ولهؤلاء البسطاء المطحونين، لكنك خنت مبادئك وخنتنا، وألقيت نفسك في حضن الخصم، وتظن أنك ربحت كل شيء: المال، والشهرة، والنفوذ، أصبحت رجل هذا العصر، بل رجل كل العصور يا (مراد)، وعرفت من أين تؤكل الكتف، ولم تبال بما فعلوه بنا، صدقني يا (مراد) عليك ديون ثقيلة جدًا يتوجب عليك سدادها، وأنا أمنحك فرصة لسدادها الآن على النحو الذي يناسبك، وهذا كرم مني صدقني.."

وقف (مراد) ينظر إليه لاهثًا بعض الوقت، ثم قال بصوت حاد لكنه مضطرب:-

- "نعم.. لقد خنتكم.. أتدري لماذا؟ لأني أفقت سريعًا من هذا العته الذي لم تفيقوا أنتم منه بعد، وعرفت أنها معركة خاسرة بكل المقاييس، ولم يكن بوسعي إقناعكم بهذه الحقيقة التي كنتم وما زلتم تجهلونها، أنا لم أكن مستعدًا لخسارة حياتي وحريتي ومستقبلي، وبالتأكيد لم يكن بوسعي أن أستأذنكم في هذا الخيار.. لقد اخترت الواقع بدلًا من الأحلام، اخترت المستقبل بدلًا من العذاب والجحيم.. وما صرت أنا وأنتم إليه أكبر دليل على حسن اختياري أنا، انظر ما صرت أنا إليه، وما صرتم أنتم إليه، أنا ربحت كل شيء، وأنتم خسرتم كل شيء.."

زاد لهاثه وهو يستطرد:-

– "والأهم من كل هذا أنه لم يتغير شيء حولنا على الإطلاق.. انظر جيدًا.. كل شيء ما زال كما هو.. لم يتغير شيء سوى أني عرفت قواعد اللعبة وربحت، وخسرتم أنتم، وعليكم أن تتقبلوا الخسارة كالرجال، وأنت بالذات في ظروفك هذه عليك أن تتقبلها، لأنك تعرف جيدًا أنك لن تستطيع فعل أي شيء لي، ولن تحصل على أي شيء مني إلا برغبتي أنا.."

ساد الصمت للحظات بدت لـ (سليم) طويلة جدًا، يستطيع أن يرى نظرات ذلك الـ (بركات) الجامدة، وهي مسددة باتجاه (مراد)، لكنه لا يستطيع رؤية نظرات ذلك الأخير! إن ذلك الـ (بركات) عجوز مقعد، لكن مؤكد أن له تأثيرًا وهيبة كبيرين جدًا!

وأخيرًا تحدث ذلك الـ (بركات) بصوته الواثق بدرجة لا تطاق، قال:–

– "أهذا كل ما عندك يا (مراد)؟"

أجاب (مراد) بيه بحدة مضطربة:–

– "لا.. أريد أن أؤكد لك أولًا: أنك لن تستطيع ابتزازي، وكان الأفضل لك أن تطلب مني أي تعويض بشكل مهذب، وكنت سأمنحك ما تطلبه كمساعدة مني لك، لا كتعويض، وثانيًا: أريدك أن تعرف أني أقوى بكثير منك ومنهم جميعًا، وأظنك تعرف هذا فعليًا.."

ثم لوح بسبابته في وجه ذلك الـ (بركات) وهو يضيف:–

– "وثالثًا: إن كان ليس لديك ما تخسره، فأنا لديّ الكثير الذي لا أحب أن أخسره، وهذا يعني أني مستعد للقتال بشراسة للدفاع عما أملك، بما يعني أنه ليس من مصلحتك ولا مصلحتهم أن تتخذوني خصمًا، وتبتدئوا هذه المعركة معي، اعتبر هذا نصيحة أو تحذيرًا أو تهديدًا، لا يهم.. المهم أن تعيه جيدًا، لكي لا تلومني فيما سأفعله بعد!"

قال هذا ثم استدار وتحرك تجاه السيارة حتى صار بمحاذاتها فعلًا، لكن ذلك الـ (بركات) استوقفه للمرة الثانية قائلًا:–

– "هل هي السبب يا (مراد)؟"

توقف (مراد) فجأة عن ركوب السيارة، لكنه لم يلتفت للخلف، فواصل ذلك الـ (بركات) قائلًا:-

- "طليقتك.. هل هي ما جعلت منك هذا الذي أراه الآن؟ لن أنسى ما كنت عليه يا (مراد) قديمًا قبل أن تتخلى هي عنك، كنت إنسانًا بحق، وكنت مؤمنًا جدًا بإنسانيتك، بعد ذهابها لم تعد ذلك الإنسان الذي عرفناه.."

ما زال (مراد) يستمع دون أن يلتفت، لكنه واقف مكانه كتمثال من الشمع، في حين استطرد ذلك الـ (بركات) قائلًا:-

- "آخر شيء أقوله لك يا (مراد)، هذا الذي تظن أنك تملكه، وتريد أن تدافع عنه بشراسة لن يظل معك بعد موتك، وسيرثه الابن الذي عاد إليك مؤخرًا، ولم تكن تعرفه قط قبل عدة أشهر مضت، وأعتذر لأني نسيت أن أهنئك على عودته!"

التفت (مراد) إليه بصمت، وظل ينظر إليه نظرة غريبة، في حين ابتسم ذلك الـ (بركات) بطريقة سمجة للغاية، وقال:-

-"ألم تلاحظ شيئًا يا (مراد)؟ أنا واثق من أنك أجريت العديد من الاتصالات التي لم تسفر عن شيء، بدليل أني أتواجد هنا الآن.. يمكنك القول إني قررت أن أجرب طريقتك وعقدت صفقتي معهم"

ثم لوح بيده كأنه يودع شخصًا مسافرًا، وقال:-

- "وداعًا يا (مراد)، هذا لقاؤنا الأخير.. وتذكر أني منحتك الفرصة لتكفر عن ذنبك، لكنك أهدرتها، مع أنك من النوع الذي يجيد اغتنام الفرص أيما إجادة.. وسنرى من يبكي قريبًا على إهداره الفرص التي سنحت له.. وداعًا.."

ظل (مراد) ينظر إليه بصمت للحظات، ثم ألقى بنفسه داخل السيارة، وقال لـ (سليم):-

- "تحرك.."

لم يقل إلى أين، واعتقد (سليم) أنه كان يريده أن يغادر هذا المكان، أو بالأحرى الابتعاد عن مواجهة هذا الشخص إلى أي مكان آخر، وهو لا يعلم أن (سليم) أيضًاكان يريد الابتعاد عن هذا المكان وهذا الشخص، أكثر حتى من سيده!

نعم.. حتى (سليم) كان مذعورًا بشدة من تلك المواجهة، وإن كان حتى لا يدري ما الذي يخيفه بالتحديد!

***

قلبه كان يخفق بشكل غير عادي، إنها ليست المرة الأولى التي يتوجه فيها إلى أحد أقسام الشرطة، فلطالما ذهب لمحاولة استخراج أحد أبناء الحي المحتجزين بالداخل لسبب ما، أو للاستفسار عن شيء ما يخص بعض الأحكام التي حصل عليها من بعض قضاياه، أو لتسليم حكم دعوى حبس ضد أحد الأزواج الذين يقاضيهم لصالح زوجاتهم، لكنها المرة الأولى على الإطلاق التي يتوجه فيها إلى قسم شرطة لاستخراج صديق له محتجز هنالك!

كان الاتصال الذي جاءه مبتورًا، فقط أخبره أحدهم أن صديقه الشيخ (عادل) محتجز هناك، وهو الذي طلب الاتصال به، وأغلق الخط قبل أن يستوضح (ربيع) أي شيء، وكان أول ما فعله بعد هذا الاتصال أن اتصل هو بدوره بصديقه المعاون (جمال)، فهو يعمل بالمباحث وسيتصرف أفضل منه، لكن (جمال) رد عليه بعجلة مخبرًا إياه إنهم اتصلوا به قبله، لكنه مشغول الآن بمأمورية مهمة، ولا يستطيع فعل شيء، ومن ثم وجد (ربيع) نفسه مضطرًا للتوجه بنفسه إلى قسم شرطة الهرم لفعل ما يلزم من أجل صديقه.

كان السؤال الذي يشغل باله طوال الطريق: ترى ماذا فعل (عادل) بالضبط؟ ولماذا هو محتجز هناك؟ وكان يشعر بانقباض غريب وهو يوجه لنفسه تلك الأسئلة!

كان كل شيء في (ربيع) يطن ويئز: عقله، قلبه، روحه، حياته تبعثرت فجأة في الآونة الأخيرة، فقد ظهرت (شهد) فجأة في حياته وعصفت بثباته واتزانه، ثم ظهرت بعد ذلك (ناهد) تطلب مساعدته ضد زوجها، ولا زال يذكر حديثه الطويل معها داخل سيارتها، ذلك الحديث الذي لم يفض إلى شيء، وأنهاه بوعد أنه سيبحث الأمر لعله يجد حلًا، لكنه لم يحاول حتى البحث عن حل، ولحسن الحظ أنها لم تتصل به بعد، بالرغم من أنها طلبت رقم هاتفه، وأعطاها إياه.

كان حديث (ناهد) الطويل لا يزال يطن في عقله وأذنيه:-

- "لقد تزوجت (مراد) عن حب، كان وقتها قد خطا خطواته الأولى نحو القمة بنجاح، وكان كل شيء فيه يوحي بأنه رجل يعرف كيف يصل إلى ما يريد، لقد أحببته حقًا، وحين عرض عليّ الزواج وافقت بدون تردد، لكن الخطأ الذي ارتكبته ولن أغفره لنفسه أبدًا: أني وافقت على شرطه الوحيد، تخيل هو الذي كان يضع الشروط لنتزوج!"

كان صوتها عذبًا، لكنه خالٍ من النعومة والغنج، ومجددًا انعقدت المقارنة بينها وبين ساحرته (شهد)، هذه الأخيرة صوتها ممتلئ بالنعومة والأنوثة، تستطيع أن تأسرك بمجرد أن تتكلم، تستطيع أن تقهر أعتى الرجال بجملة واحدة من أقل الكلمات، أما (ناهد) فإنها تتحدث كما لو كانت تلقي محاضرة في التفاعلات الكيميائية، أو صور انتقال الطاقة، ومع ذلك كان لصوتها رنين عذب لا تخطئه الآذان.

- "أي شرط هذا؟"

أجابت على الفور:-

- "ألا ننجب مطلقًا، هذا في البداية، وحين شعر بقسوة شرطه أجرى عليه تعديلًا طفيفًا: ألا ننجب خلال الأعوام الأولى من زواجنا حتى نطمئن إلى مستقبلنا معًا.. وقد وافقت، وكنت مستعدة للموافقة من قبل حتى أن يطرح هذا التعديل، وهكذا تزوجنا."

بالرغم من توجس (ربيع) من الأمر كله، إلا أن فضوله كان يدفعه لمعرفة كافة التفاصيل، كأنه يشاهد فيلمًا تسجيليًا يوثق حياة الأثرياء الأوغاد!

- "ثم...؟"

- "لم ألتزم بهذا الشرط، فقد حدث الحمل بعد عام واحد من زواجنا، وهذا أغضبه بشدة، ولم يقبل أن يصدق أن هذا حدث بالخطأ، وكاد هذا الحدث أن يعصف بزواجنا، لكنه في النهاية اضطر لقبول الأمر والتعايش معه، لكنه أضاف شرطًا جديدًا وصارمًا لنستأنف حياتنا معًا: ألا يتكرر هذا الخطأ مجددًا بأية صورة كانت، وقد وافقت كالعادة،

وهكذا أنجبنا ابنتنا (نورا)، وأسعدني كثيرًا أنه أظهر فرحته بها، وأنه ظل يعاملها بلطف وحنان طيلة الوقت."

– "أين المشكلة إذن؟" لا بد من وجود مشكلة"

صمتت للحظات، ثم تنهدت وأجابت بنفس الطريقة العملية:–

– "المشكلة أني كنت أعلم أنه كان متزوجًا قبلي أيام فقره، وانفصل عن زوجته، لكنه لم يخبرني أن له ابنًا في مكان ما، أخذته أمه ورحلت به، لم أعلم ذلك إلا العام الماضي، حين ظهر هذا الفتى بغتة من الفراغ مدعيًا أنه ابن (مراد عز الدين)"

– "لم أفهم بعد: مشكلتك في إخفاء هذا الأمر عنك طيلة هاته السنين، أم في ظهور هذا الابن مؤخرًا؟"

– "كلاهما مشكلتي في الواقع، هل تعرف معنى أن يخفي عنك شريك حياتك سرًا بهذه الأهمية والخطورة، حتى تكشفه الصدفة؟ ثم دخول شخص غريب في حياتك ليعيش معك في ذات البيت بشكل أساسي؟ لكن على أية حال ما فكرت فيه أنت هو أهون المشاكل بالنسبة لي!"

– "كيف ذلك؟"

مالت نحوه قليلًا، وحدقت به مباشرة وهي تجيب:–

– "أنا أشك في كون هذا الطفل ابنه حقيقة!"

لم يستوعب (ربيع) مقصدها تمامًا، فنظر إليها مستوضحًا، فتراجعت للخلف مجددًا، وقالت:–

– "أنت لا تعرف (مراد) مثلي، إنه محتال من الطراز الأول، ويجيد التلاعب بكل شيء، واستغلال كل شيء لصالحه، واللعب على كل الحبال، والتخطيط لكل الأمور، لا شيء في حياة (مراد عز الدين) يحدث صدفة، فهل أصدق أن له ابنًا ظهر فجأة؟"

– "ألم يجرِ الفحوصات اللازمة للتأكد من حقيقة كونه ابنه؟"

– "لا.. ولم يحاول حتى، اكتفى ببعض الأوراق الرسمية التي قدمها الولد، بل نهرني بشدة حين اقترحت عليه إجراء الفحوصات الطبية للتأكد، كأنه ما صدق أن ظهر هذا الابن الغائب، أو هكذا يريد أن يظهر الأمر.."

– "إذن..؟"

– "إذن ماذا؟"

– "لنفترض أنها حيلة منه كما تظنين، ما الدافع وما الطائل من ورائها؟ ماذا سيستفيد من تقديم هذا الولد للناس – ولك أيضًا – باعتباره ابنه؟"

– "لا أعرف.. حقيقة لا أعرف.. لكن مع (مراد عز الدين) ينبغي أن تكون مستعدًا لتصور أي شيء.."

وصمتت قليلًا ثم أضافت:–

– "الآن أنت على علم بمعضلتي، الحل الوحيد الذي أفكر فيه الآن أن أنفصل عنه مع الاحتفاظ بكافة حقوقي وحقوق ابنتي القانونية والشرعية، هل تعرف كيف أحصل على هذا؟ أو هل لديك حل أفضل؟"

السؤال مكون من شقين كلاهما عسير للغاية، لكنه لم يكن السؤال الذي يهمه في الأمر كله حقيقة، السؤال الذي كان يعنيه حقًا هو:–

– "لماذا أنا؟ كان بوسعك الاستعانة بمحامين كبار أكثر سطوة وتأثيرًا وحتى دراية بالقانون مني!"

أجابت تلقائيًا:–

– "لأن كل المحامين الذين أعرفهم أصدقاء لـ (مراد)، وفي هذه اللحظة لا أعرف محاميًا لن يتواطأ معه ويفشل قضيتي سواك!"

وهكذا أجابت عن السؤال الذي يشغله ببساطة، وكان يتعين عليه أن يعثر هو على إجابات لسؤالها هي!

كان حديثه معها لا يزال يطن في أذنيه وعقله، حتى وهو في طريقه إلى قسم الشرطة حيث يقبع صديقه الحميم الشيخ (عادل) محتجزًا هناك، وهو لا يعرف بعد سبب احتجازه، لكن قلبه كان منقبضًا بشدة، ولديه حدس قوي أن الأمر سيئ للغاية.

وحين وصل هناك، استقبله أحد معاوني الشرطة، وعرض له الأمر بإيجاز:-

- "لقد صدما بسيارتهما شخصًا يعبر الطريق، وتم نقله إلى المستشفى، وحالته خطرة"

صدما بسيارتهما؟ هذا غريب من وجهين: أولهما: أن (عادل) لا يملك سيارة، وثانيهما: أن الشرطي يتحدث بصيغة المثنى، من الشخص الآخر الشريك في الأمر؟

- "تعني من هي.. إنها أنثى، وهي التي كانت تقود السيارة!"

أنثى؟! وبدأت الأمور تتضح الآن، (عادل) استطاع أن يحصل على رفيقة ثرية تمتلك سيارة، وكانا يرافقها في الطريق، ولعله كان يتغزل بها فأخذتها النشوة ولم تنتبه للطريق، فصدما شخصًا ما كان عابرًا بالصدفة في الزمان والمكان غير المناسبين، وحالته خطرة الآن وربما يهلك.

حاول (ربيع) أن يفكر في الأمر كمحامٍ، صحيح أنه لا يعمل في قضايا كهذه، لكنه يظل محاميًا مطلعًا على القانون، القضية ليست قتلًا عمدًا مع سبق الإصرار، إنها مجرد حادثة، قتل عن طريق الخطأ، هذا بفرض موت الشخص الضحية، وهو لم يمت حتى الآن، وهذا جيد، كما أن (عادل) لم يكن هو الذي يقود السيارة، وهذا جيد للغاية، بل هو كافٍ لخروجه بدون أي اتهام، فهو ليس مسئولًا عما حدث، لكنه يعرف أن (عادل) لن يتخلى عن رفيقته، وسيطلب منه مساعدتها لإخراجها من هذه الورطة، فعليه من الآن أن يبحث في تفاصيل وملابسات الحادثة ليعثر على شيء يفيد المرأة، وربما يلقي باللوم على الضحية نفسه.

لكنه الشرطي فاجأه وهو يطالع بعض الأوراق، حيث قال وهو يحك في ذقنه:-

- "هذا غريب! العنوان الذي في بطاقة صديقك (عادل) هو ذاته عنوان الشخص الذي صدمته السيارة! إنهما يسكنان في نفس الحي"

انتقلت المفاجأة إلى (ربيع)، فهو أيضًا يسكن في ذات الحي، ولعله يعرف الضحية، ومد عنقه للأمام محاولًا أن ينظر في الأوراق ليرى اسم الضحية، لكن الشرطي أراحه من هذا العناء قائلًا:-

- "إنه محاسب اسمه (ميلاد راغب)، هل تعرفه؟"

- "..... !"

***

الفصل الثامن عشر

لا.. لم يكن (ربيع) يعرف (ميلاد) بالرغم من أنهما يعيشان في ذات الحي!

لا أحد يعرف (ميلاد) أصلًا سوى جيرانه الأقربين، وبالتأكيد لا يعرف قصته مع فتاة المترو التي اختفت فجأة، بل تلاشت وكأنها تبخرت للأبد، لكن (ميلاد) فجأة وهو مستغرق في زفرات أحزانه تذكر تلك البطاقة التي كانت تدسها في طيات روايتها الأثيرة، وسقطت منها داخل عربة المترو، وسارع هو باللحاق بها ليعيدها إليها، وبهذه الطريقة حصل على الكلمة الوحيدة التي سمعها منها.

كانت بطاقة دعاية لأحد الأطباء، وبدا له اسم ذلك الطبيب مألوفًا بشدة، حتى تذكر فجأة أنه الطبيب الذي اكتشف إصابة أمه بسرطان الثدي!

وهكذا هب (ميلاد) من عزلته ونوبة اكتئابه، وانطلق ليتبع طرف هذا الخيط، وظل أيامًا يراقب عيادة هذا الطبيب، وترك عمله وتفرغ كل التفرغ للمراقبة، لكن هذه الخطة لم تصل به إلى شيء، فقرر أن يمارس أول مخاطرة له في حياته كلها، بالذهاب إلى سكرتير ذلك الطبيب، وعرض عليه مبلغًا باهظًا من المال.

في الأحوال العادية ما كان (ميلاد) ليقدم على فعل هذا، لكنه أصبح مستعدًا لفعل أي شيء في سبيل التوصل إلى بطلة أحلامه الغائبة، ولم يكن يملك إلا الوصف الذي يحفظه عنها، وفي الأحوال العادية ما كان الوصف ليكفي للتوصل إلى أي شيء، لكن مع المبلغ الذي عرضه بجانب الوصف أضحت المهمة سهلة، وهكذا توصل (ميلاد) إلى بطلة أحلامه بجهد يسير!

كانت المفاجأة أن اسمها (كاترين) على اسم بطلة الرواية، هل هذا هو سر تعلقها بتلك الرواية؟ لكن المحزن في الأمر أنه اكتشف أنها تم تحويلها إلى معهد الأورام لتستكمل علاجها هناك، فتوجه إلى هناك ليتابع الأمر عن كثب، وقام بممارسة المخاطرة الثانية في

حياته، حيث احتال ليراها، ووقف ما يقرب من نصف الساعة يشاهدها وهي غافية بوجهها الشاحب، والأنابيب الموصلة إلى جسدها الضامر، حتى أرغمته إحدى الممرضات على الانصراف.

وهكذا ظل (ميلاد) يتابع حالتها عن كثب، حتى ذهب ذات يوم ليراها فأخبروه بالنبأ الصاعق، وتبددت جميع أحلامه إلى الأبد.

الآن لم يعد يشغل باله سوى أن يلحق بها بطريقة ما، كان لديه هاجس كاليقين أن القدر قدّر له لقاءه بها في العالم الآخر، لا في هذا العالم، وأن هذا العالم الذي يحياه الآن هو ما يحول بينه وبين لقائها، وعليه أن يغادره بأية طريقة ليصل إليها.

حين وقف (ميلاد) أمام ذلك الضابط أنكر تمامًا أنه قام بأي محاولة لقتل نفسه، وأمام إصراره على الإنكار لم يجد الضابط بدًا سوى أن يطلق سراحه، بعد أن وجه إليه النصيحة المخلصة قائلًا:-

-"أنت شاب ناجح في عملك، ومستواك الاجتماعي جيد، وينتظرك مستقبل واعد، لماذا تحصر نفسك في هذه الدائرة الخانقة؟ حاول أن تحب الحياة، وتبحث عمن تشاركك إياها وتنجب أطفالًا وتستمتع معهم بكل لحظة"

فأومأ (ميلاد) برأسه موافقًا ظاهريًا فقط، وأعطى الضابط وعدًا زائفًا بأنه سيفعل ما نصحه به، ثم خرج من عنده شاعرًا بالأسى لأن محاولته الأخيرة فشلت، ولسان حاله يقول في لوعة: أنا لم أكذب عليك يا سيدي بقدر ما كذبت على نفسي، ما كان ينبغي لي أن أفعلها أمام الناس، وكأني أريدهم أن يمنعوني، كان ينبغي عليّ من البداية أن أبحث عن وسيلة ومكان بعيدين عن أعينهم وكل حواسهم!

وحين رجع إلى بيته جلس على طرف سريره وقال لنفسه: فلأفعلها هنا في بيتي، بل في قلب غرفتي، كل ما أحتاجه حبل متين سميك كحبال التسلق، ولا يشترط أن يكون طويلًا، بالعكس في حالتي هذه ينبغي أن يكون قصيرًا، لأن سقف الغرفة لا يزيد ارتفاعه عن ثلاثة أمتار، وتتدلى منه مروحة السقف مسافة نصف متر لأسفل، إذن تتقلص

المسافة إلى مترين ونصف المتر، فإذا وضعنا في الاعتبار أن طولي ١٧٤ سم، إذن يتبقى لي فقط مسافة ٧٦ سم تفصلني على الأرض، وهذا يعني لزامًا أن تكون المسافة التي يتدلى منها الحبل بأنشوطته أقل من هذه المسافة المتبقية.

وهكذا حسب (ميلاد) حسبته، معتمدًا على مهارته كمحاسب، وأردف: أظنني أحتاج إلى حبل طوله يبلغ مترًا ونص المتر لا أكثر، بحيث يكفي ليلتف حول المروحة بإحكام، ويكفي لعمل أنشوطة دائرية قابلة لأن تضيق حول العنق لتضغط بقوة على شرايين العنق وكسر الفقرة الثانية منه، لينتهي الأمر في دقائق!

لكنه بعد ذلك كان قلقًا جدًا من المروحة، ويخشى ألا تتحمل ثقله فتنفصل عن السقف وتسقط معه، وتفشل الخطة، المشكلة أنه لا يوجد شيء آخر بارز في السقف يثبت فيه الحبل سواها! يجب أن يتأكد أولًا من قوة تثبيت المروحة، ثم يتأكد من لف الأنشوطة، ومن وضع عقدة الحبل بحيث تكون على مؤخرة العنق وليس على جوانب الرقبة، لأن وضع العقدة هكذا يجعل الحبل يضغط على جانبي العنق، فيحدث الانضغاط الوعائي والعصبي، بجانب كسر العظم اللامي، مما يؤدي إلى توقف التروية الدموية عن الدماغ والمراكز القلبية والتنفسية، وينتهي الأمر دون ألم! إنه محاسب، مهنته تعتمد على: (١ + ١ = ٢)، ويجب ألا يترك مجالًا للخطأ أو للصدفة.

وهكذا اعتمد (ميلاد) خطته، وهو عازم تمامًا على تنفيذها، لن ينتظر مثل (هيثكليف) عشرين سنة حتى يلقاها، إنه وغد قاس، وهو ليس مثله أبدًا، إنه مدين لها بهذا، مدين لها بكلمة "شكرا" التي حصل عليها منها، مدين لها بكل تلك الصباحات التي قضاها في مواجهتها أو بالقرب منها في عربات المترو، مدين لها بجميع تلك الأحلام والخيالات التي صنعها وصاغها في خلواته بوحي إلهامها، وما كانت لتحصل بدونها، مدين لها بالغروب الجميل الوحيد الذي حظي به في حياته كلها، مدين لها بغيابه عنها في وقت ألمها وتعبها، مدين لها بالكثير والكثير، ولن يسدد هذا الدين سوى اللقاء!

وتذكر في هذه اللحظة ما قاله الوغد (هيثكليف) في آخر أيام حياته:-

– "أيمكنك أن تحثي إنسان يصارع الماء أن يرتاح وهو على بعد متر واحد من الشاطئ؟ لا بد أن أصل الشاطئ أولا وعندئذ سأرتاح!"

كذا قال (هيثكليف) قبيل النهاية، وها هو (ميلاد) يقف في ذات الموضع، بل أقرب.. إنه على بعد ٧٦ سم من شاطئه، فقط ٧٦ سم يحتاج لأن يقطعها ليستريح، لكنها بدت له أطول ٧٦ سم في حياته كلها..

على كل حال بالنهاية لم يستطع (ميلاد) اجتياز تلك المسافة، وسقط وسقطت معه المروحة، وحين نهض والحبل لا يزال ملتفًا بعنقه اتخذ قراره النهائي بأن يلقي نفسه أمام أية سيارة مسرعة وينتهي الأمر، وهكذا ركب سيارته وانطلق بلا هدى، حتى وجد نفسه في طريق سريع ليس مزدحمًا للغاية، فنزل من سيارته، واقترب من حافة الطريق، وانتظر أقرب سيارة عابرة ليلقي بنفسه أمامها، ولسانه حاله يقول:–

– "أنا قادم يا عزيزتي.. أنا قادم من أجلك!.. لأن العهد الذي بيني وبينك أقوى وأحرى بالوفاء!"

***

الفصل التاسع عشر

(مراد عز الدين) ليس على ما يرام هذه الليلة! لكن متى كان (مراد عز الدين) على ما يرام؟!

لا.. هذه المرة تختلف، عرف (سليم) ذلك جيدًا، وإن كان لا يدري وجه الاختلاف بالتحديد! أخذ يتفرس في ملامح وجهه البادي في مرآة السيارة الأمامية، وهو يقودها إلى حيث لا يدري، كانت تعابير وجهه جامدة لا يمكن قراءتها على الإطلاق، وهذا مخيف! عيناه حمراوان زائغتان، وهذا أيضًا مخيف! مسدسه الصغير الأنيق (السيج ساور) تحت ثيابه، وهذا مخيف أكثر، لكنه لا يتحدث إلا ليرشده إلى الوجهة التي يقصدها، وهذه الوجهة أخرجهما عن حدود القاهرة، واتجهت بهما نحو الصحراء القاحلة المظلمة، وهذا هو الأكثر إرعابًا في نظر (سليم)!

كانا يتجهان إلى مكان بعيد عن العمران، ولم يستطيع (سليم) التفكير إلا في الاحتمالات السيئة، وأسوأها على الإطلاق أنه يريد قتل أحدهم بعيدًا عن الناس، ربما كان يريد قتله هو، وإن كان لا يدري لماذا قد يفعل ذلك، لكن مع شخص كـ (مراد عز الدين) عليك ألا تسل لماذا قد يفعل، هذا في أحواله الطبيعية، فما ظنك بالأحوال غير الطبيعية كالتي هو فيها الآن!

المشكلة أن (سليم) لا يستطيع سوى الانصياع لأوامره حتى النهاية، ولا يقدر على الاستفسار، ولا المناقشة، ناهيك عن الاعتراض، على الرغم من أن حياته ذاتها على المحك ها هنا!

حاول أن يطمئن نفسه: لو كان يريد قتلي لفعل هناك بالفيلا، ولدفن جثتي بالحديقة، وهو آمن تمامًا من المحاسبة، هؤلاء القوم لا يحاسبون على جرائمهم مهما بلغت شناعتها،

وقتل أمثالي لن يضير أحدًا سوى أسرتي، وأسرتي لا تعنيهم في شيء، كل ما في الأمر أنه سينقص عدد الفئران واحدًا، هل يمكن أن يؤذي هذا مشاعر أحد؟

فجأة ولأول مرة تحدث (مراد):-

- "لقد خدعوني يا (سليم).. أنا (مراد عز الدين) خُدعت أشنع خدعة ممكنة"

لم يكن (سليم) على علم بأي شيء مما يحكي عنه، أية خدعة؟ ومن هم الذين خدعوه؟ ولأي غرض؟ لكنه لم يجرؤ حتى على السؤال!

فجأة أخرج (مراد) بعض الأوراق ولوّح بها وهو يكز على أسنانه:-

- "الفحوصات أثبتت أنه ليس ابني.. لقد خُدعت.. خُدعت"

انتبه (سليم) وهو ينظر إلى المرآة الأمامية أن وجه السيد كان محتقنًا بشدة، بالرغم من أنه خفض الأوراق التي يلوّح بها، ولاذ بالصمت برهة.

بعد قليل عاد يقول:-

- "لكني كشفت الخدعة بالرغم من ذلك، وهو الذي ساعدني على كشفها دون أن يقصد، هل تذكر حين قال لي: هذا الذي تظن أنك تملكه، وتريد أن تدافع عنه بشراسة لن يظل معك بعد موتك، وسيرثه الابن الذي عاد إليك مؤخرًا، ولم تكن تعرفه قط قبل عدة أشهر مضت؟ في هذه اللحظة سطع النور في عقلي وفهمت ما يجري، واكتشفت الخدعة!"

ولاذ مرة أخرى بالصمت.

ومن بعيد على ضوء القمر الذي يوشك على الاكتمال ظهرت معالم مدينة سكنية تحت الإنشاء، وحين اقتربا منها رأيا الأخشاب المنتظمة لصب الخرسانة عليها، وأكوام الرمل المستخدم في البناء، وشكائر الأسمنت المتراصة بكميات كبيرة، وعلى كشافات السيارة ظهرت حفر الأساس التي تم صب بعضها، وبقى بعضها الآخر محفورًا لم يصب بعد، إنه مشروع عقاري تم بدء العمل فيه حديثًا جدًا..

على أطراف المكان لمح ضوء الكشاف اليدوي الذي يومض من بعيد، وقبل أن يتكلم السيد ويأمره بالتوجه إلى هناك كان (سليم) قد توجه نحوه بالفعل، وحين اقتربت السيارة رأى (سليم) هؤلاء الرجال الثلاثة ذوي الملامح المرعبة يقفون بانتظارهما، فتوقف قريبًا منهم.

وعلى الفور أقبل أحدهم على السيارة، وراح يرحب بالسيد بطريقة قميئة منفرة، ونزل السيد من السيارة، بينما قبع (سليم) داخلها، وسمع السيد يقول بصوت جاف:-

- "أين هو؟"

أشار الرجل إلى جهة ما، وهو يقول بصوت غليظ:-

- "ها هو يا سعادة الباشا.. تفضل من هنا.."

السيد لم يأمره بالبقاء مكانه داخل السيارة، بما يعني أنه يحق لـ (سليم) النزول ومشاهدة ما يحدث، أو هكذا برر الأمر لنفسه والفضول والقلق يأكلانه أكلًا، فنزل ببطء وحذر، وسار خلفهم بضع خطوات ثم توقف من نفسه خشية أن يشعر به السيد وهو يتبعه ويعتبر هذا خطأ يستوجب الغضب..

كنت كشافات السيارة لا تزال تعمل، وعلى ضوئها الساطع شاهد السيد وهو يقترب من المبنى الذي تحت الإنشاء، وانتبه (سليم) لأول مرة لوجود جسد مسجى، وكان جسدًا هامدًا بلا حراك، وسرت قشعريرة ثلجية في بدن (سليم) وهو يحاول استيعاب الموقف، وسمع أحد الرجال يقول:-

- "حاولنا معه كثيرًا، لكنه أصر على الإنكار، واضطررنا لإنهاء الأمر"

ماذا يفترض أن يعني هذا؟!

ورأى (سليم) السيد يثني ركبتيه ويقعى لأسفل قرب الجسد المسجى، ثم يمد يده ويزيل جزءًا من الغطاء ليطالع وجه ذلك المسجى، وعلى ضوء الكشافات الساطعة ارتسمت تعابير الرضا على وجه السيد، ثم نهض قائمًا واستدار ليتحرك تجاه السيارة، وقال آمرًا:-

- "ادفنوه بأي مكان، ولا تتركوا أثرًا وراءكم"

أومأ أحدهم ملبيًا الأمر، بينما اقترب منه آخر ومد إليه حقيبة صغيرة، قائلًا:-

- "هذا كل ما كان معه"

أمسك السيد بالحقيبة، ثم واصل تحركه تجاه السيارة، فبادر (سليم) باتخاذ مقعده داخلها قبله، وانتظر حتى استراح السيد في مقعده الخلفي، وقال له:-

-"هيا لنذهب من هنا"

وعلى الفور تحرك (سليم) وجسده لا يزال ينتفض هلعًا بعد أن استوعب حقيقة ما حدث بالكامل، وشعر برغبة حارقة للتبول، لكنه لم يجرؤ على إيقاف السيارة، وواصل الانطلاق فارًا من المكان.

ظل السيد صامتًا بعد ذلك، ولكن هذه المرة ارتسمت على وجهه علامات الانتصار، ومر الوقت بطيئًا ثقيلًا، والسيارة تواصل الابتعاد، و(سليم) لا يزال يرتجف هلعًا، ويرغب في التبول، وانتفض بشدة حين دوّى رنين هاتف السيد في الخلف، أما السيد فقد تناول الهاتف ببساطة، ونظر في الشاشة ليرى رقم المتصل، والتمعت عيناه بشكل غريب، وفتح الميكروفون ليرد على المكالمة دون أن يضع الهاتف على أذنه، وقال بصوت جاف:-

- "مرحبًا أستاذي ومعلمي.. كنت أتحرق لاتصالك هذا، طبعًا قررت أن تتحلى بالروح الرياضية، واتصلت لتهنئني بالفوز!"

انبعث صوت ضحكة متحشرجة من الهاتف، إنه نفس الصوت الواثق المتحشرج الذي سمعه (سليم) مرتين من قبل، وارتعد أكثر وأكثر، أحس في هذه اللحظة أن السيد يفتح الميكروفون عامدًا ليعلن انتصاره أمام الأشهاد، وفي هذه اللحظة كان الأشهاد ثلاثتهم: هو وصاحب الصوت الواثق المنحشرج، و(سليم) فقط لا غير..

- "ترى ماذا كانت الخطوة التالية؟ قتلي.. أليس كذلك؟"

كذا قال (مراد)، بينما واصل الصوت الواثق المتحشرج الضحك، الذي لم يلبث أن انقلب إلى سعال!

– "لكني دعني أولًا أنا أهنئك على براعتك، لقد كنت أستاذًا بحق، عرفت نقطة ضعفي، فأرسلت إليّ ذلك المحتال، كنت تعلم أن لهفتي ستمنعني من التثبت من هويته، أو إجراء الفحوصات اللازمة، وسأكتفي بتلك الأوراق المزورة، كنت تدير رقعة الشطرنج بعبقرية، أنت تتحكم بكل شيء، وتوهمني بأني أنا المسيطر، وحين أوشك الدور على الانتهاء أظهرت نفسك لتقول لي: كش ملك، وتحصل أنت على كل شيء بنيته وأحرزته طيلة السنين الماضية، يا لها من خطة شيطانية! حقيقة أهنئك عليها، لكن الآن حان دورك لتهنئني على أني اكتشفت الخدعة وأحبطتها، والعبرة دائمًا بالنهاية"

ظل الصوت الواثق المتحشرج يضحك ويسعل برهة، قبل أن يتحدث لأول مرة ويقول:–

– "أية نهاية يا (مراد)؟"

أجاب (مراد) بظفر:–

– "لقد فشلت خطتك: أنا ربحت وأنت خسرت، ويتعين عليك أن تعترف بهذا!"

استمر الضحك والسعال دقيقة أو أكثر، لكنها مدة بدت طويلة جدًا في هذا الموقف، قبل أن يتحدث الصوت الواثق المتحشرج مجددًا، ليقول:–

– "يا إلهي! ماذا فعلت يا (مراد) بالضبط؟"

رد السيد بقسوة:–

– "لن تكتشف ما فعلته، لكن خطتك فشلت للأبد، والآن حان دوري للرد، أنا لم أبدأ لعبتي بعد.."

– "أية لعبة، وأية خطة؟ ومتى أصبحت ساذجًا إلى هذه الدرجة يا (مراد)، أنت لم تكتشف اللعبة بعد، وأنا بالفعل أدير الرقعة باقتدار، وأوهمك بأنك أنت المسيطر، لكن دعني أنا أسألك: كيف تأتَّى لرجل بذكائك أن يعتقد أن الأوراق الرسمية مزورة، ولم يخطر على باله ولو للحظة أن الفحوصات الطبية ليست هي المزورة؟ هه؟"

احتقن وجه (مراد) مجددًا، وقال بعصبية:–

– "كف عن التلاعب، واعترف بهزيمتك.."

– "أية هزيمة يا (مراد)؟ لقد خنتنا ولكنك لم تهزمنا، ولن تفعل، أنت الذي هزمت نفسك الآن هزيمة ساحقة دون أن تشعر.. على كل حال أنت محق في شيء واحد من بين جميع ما قلته: أنا بالفعل أتصل الآن لتهنئتك، ليس على الفوز، بل على سداد دينك.. لقد دفعت الكفارة على أفضل الوجوه.. والآن أقول لك: هنيئًا لك يا (مراد) لقد صرت حرًا، والآن فقط أودعك.. وداعًا يا (مراد)، حاول أن تعيش مع هذا طويلًا.."

وانتهت المكالمة فجأة، وتصلب السيد مكانه وقد جحظت عيناه بشكل غريب، وظل متصلبًا بعض الوقت، قبل أن ينتفض بغتة، ويتناول الحقيبة الصغيرة التي ناوله الرجال إياها في ذاك الموقع، وأخذ يفتش فيها بعصبية، فأخرج منها جوالًا أنيقًا، وحافظة نقود، وبعض الأوراق، و..... وفجأة تصلبت يده على شيء ما داخل الحقيبة!

وتصلب جسد السيد مجددًا، وجحظت عيناه أكثر، وبعد لحظات خرجت يده وهي تقبض على شيء ما يتدلى من بين الأصابع، وفي انعكاس المرآة الأمامية رأى (سليم) جزءًا من سلسلة تتدلى من بين تلك الأصابع المرتعشة، سلسلة تبدو عتيقة، بل إن شئنا الدقة سلسلة ذابت قشرتها مع مر السنين.

سلسلة قشرة.. هذه العبارة مألوفة لـ (سليم) جدًا، متى وأين سمعها؟

سلسلة قشرة.. سلسلة قشرة..

– "أتدري ماذا قالت لي؟ ياما جاب الغراب لأمه!"

وفجأة ومضت الحقائق في رأس (سليم) المتعب، وتذكر ما قاله السيد تلك الليلة، ولم ينتبه إلا على صوت السيد وهو يقول بصوت قادم من أعماق بعيدة:–

– "لقد قتلت ابني!!"

***

الفصل العشرون

سيوف.. نسور.. نجوم.. أشرطة..

نظرات بعضها مرتاب، وبعض حانق، وبعضها مبغض، وبعضها غير مكترث، وبعضها خاوٍ من أي تعبير!

لقد صدق توقعه! ومد (محمود) يده وانتزع سيجارة من العلبة ممتنًا، ثم انتزع سيجارة أخرى مدّها إلي (ربيع) كأنه هو صاحب العلبة، أخذها منه (ربيع) بيد مرتعشة، وقرر أن يشاركه التدخين ليس تضامنًا معه، بل لأنه يشعر بكثير من التوتر، ويحتاج حقًا لإشعال سيجارة في هذا الموقف البغيض!

كان (محمود) قد استغرق بعض الوقت حتى اعتادت عينيه الضوء، لقد صار خفاشًا ليليًا، لا يحتمل النهار أبدًا، وينشط فقط في الليل، كيف وصل (محمود) إلى هذه الحالة؟ ولمَ؟!

وجهه لم يزل شاحبًا نحيلًا كما رآه (ربيع) آخر مرة، حين زاره ليثبت له نسخة الويندوز، لكن جسده صار أكثر نحولًا وضآلة أكثر من أي وقت عهده فيه من قبل، خشي (ربيع) ألا يتحمل (محمود) دخان هذه السيجارة، وربما وقع مغشيًا عليه قبل أن يتمها، لكن ليس هذا أسوأ ما يمكن أن يصيبه على أية حال..

لكن (محمود) شد عدة أنفاس من سيجارته قبل أن يرفع عينيه الذابلتين إليه، ويقول بصوت خافت:-

- "هل كان حقًا أنا؟"

أومأ (ربيع) برأسه إيجابًا: نعم كنت أنت.. أنت مؤسس هذه العصابة ورئيسها وآمرها، لقد انزاح اللثام عن وجه أحدهم للحظات قليلة، بضع ثوانٍ كانت كافية لأن تلتقط إحدى الكاميرات وجهه، وتم التعرف على هويته، ثم نجحوا في إلقاء القبض عليه،

واعترف بكل شيء، وكذلك اعترف الباقون بعد أن قبض عليهم! واتفقوا جميعًا على أنك أنت يا (محمود) قائدهم، وإن كنت حتى هذه اللحظة لا أعرف كيف استطعت أن تفعل كل هذا؟

عاد (محمود) يشد نفسًا جديدًا، ثم نفث دخانه الكثيف في الهواء، قبل أن يسأل مجددًا:-

- "هل هناك أدلة على هذا؟"

غمغم (ربيع) بصوت خافت:-

-"ما عادوا بحاجة إلى أدلة، لقد اعترفوا جميعًا باستثنائك أنت!"

لقد عثرت الشرطة أيضًا على أكثر الأموال التي سرقها (محمود) ورفاقه، ولم ينفقوها بعد، اتضح أنهم لا يسرقون من أجل المال، وإن كان لا أحد يعرف حتى الآن ما الدافع من وراء هذه السرقات سوى هذا..!

- "الغضب!"

كذا قالوا جميعًا في التحقيقات، كانوا يسرقون لأنهم غاضبون! لكن غاضبون ممن؟ أو لماذا؟ لم يقولوا شيئًا.. بدا للجميع أنهم أنفسهم لا يعرفون ممّ هم غاضبون بالتحديد!

بالنسبة لـ (محمود): لقد عثروا على بعض الأقنعة التي كان يستخدمها مع رفاقه في عملياتهم في غرفته المظلمة، كما عثروا على بعض الأسلحة التي كانوا يستخدمونها أيضًا، المضحك في الأمر أنها كانت أسلحة لعبة! كل الأسلحة التي استخدموها كانت لعبة، غير حقيقية، لكنها مع ذلك كانت كفيلة ببث الرعب في أصحاب المتاجر والعاملين بها، ليستسلموا لهم تمامًا، وبالتالي لم يؤذوا أحدًا لحسن الحظ!

- "والآن ما الذي سيحدث؟"

هذه المرة كان (ربيع) هو الذي نفث الدخان بكثافة، قبل أن يجيب:-

- "إن سار الأمر كما أرغب، وغالبًا هذا ما سيحدث، سيتم تحويلك إلى المصحة العقلية، وهناك ستبقى بعض الوقت حتى يتم شفاؤك، وتستعيد .....!"

يستعيد ماذا؟ لا يعرف.. ولا يجسر على أن يقول: تستعيد عقلك! أنت بالذات يا (محمود) ما كنت لأتصور أن تفقد عقلك بهذا الشكل، لقد كنت أكثرنا ذكاءً وتفوقًا ونبوغًا، كيف وصل بك الحال إلى هذا الجنون؟!

عادة يلجأ المحامون إلى هذه الحيلة لإنقاذ موكليهم المجرمين من تبعات جرائمهم، و(ربيع) لم يستخدم هذه الحيلة من قبل قط، فهو لا يتسلم سوى قضايا الخلع والطلاق والنفقة، وما شابه ذلك، وهذه لا تحتاج إلى دفوع أو مرافعات، إلا في نطاق ضيق جدًا، لا يتطلب مثل هذه الحيلة قط.. هذه أول قضية جنائية يمسكها، بعد أن لجأت إليه جدة (محمود) صارخة ملتاعة لينقذ حفيدها ، ومعلوم أنها لجأت إلى (ربيع) بالذات بحكم صداقتهما الطويلة.

إلا أن المفزع أكثر هذه المرة: أنها لن تكون حيلة قانونية في حالة (محمود) بالذات، فهو لا يعلم أي شيء عما حدث، كان عقله منقسمًا إلى شقين، أحدهما فقط كان يخطط ويدبر وينفذ، بينما الآخر لا يعلم عن هذا شيئًا!

ترى هل كان (عادل) كذلك حين فعل به ما فعل؟!

تذكر في هذه اللحظة وجه (عادل) وهو ينظر إليه مشتتًا بين الفرح بقدومه لمساعدته، وبين الحرج والخزي بعدما تكشفت الحقيقة لـ (ربيع)! لقد خدعه (عادل)، هو الذي أرسل إليه (شهد) لتغريه بمساعدتها والتخلص من زوجها من أجله هو، (شهد) كانت هي رفيقته في تلك السيارة التي دهست (ميلاد)، بل كان هو رفيقها لأنها سيارتها هي.

المضحك في الأمر: أنه تبين لكليهما أن اسمها ليس (شهد)، واتضح أنها كانت تتلاعب وتتسلى بـ (عادل)، مثلما تلاعبت وتسلت بـ (ربيع)! لم تكن (شهد) المرأة المسكينة التي تعاني ظروفًا تعسة في زواجها، بل كانت مجرد امرأة فاتنة ثرية تتلاعب بالرجال لتسلي وقت فراغها أثناء انشغال زوجها بجمع المال، وقد راقها ذلك الداعية الشاب الوسيم اللطيف، فاختارت أن تضمه إلى ضحاياها، ثم استدارت لتضيف صديقه المحامي الساذج معه لذات القائمة.

(عادل) حاول أن يلطف الأمر، قائلًا:-

-"أنا آسف يا صديقي.. أعترف بأني أخطأت حين لم أخبرك بشكل مباشر أنني أنا الذي أرسلتها إليك، كنت فقط أريد أن أرفع الحرج عني وعنك، بحيث إذا لم يكن باستطاعتك أن تساعدها، ستتخلى عن القضية دون أي حرج مني، هل تفهمني؟"

نعم أفهمك يا (عادل)، أفهمك أكثر مما تظن، أنت تحاول حصر الخطأ في عدم إخباري بأنك أنت من أرسلها إليّ، لكن الأمر أكبر من ذلك، أنت كنت ترغب في أن تتسلي هي وأنت بي، أرسلتها إليّ وأنت تعلم أني لن أقاوم سحرها وأنوثتها، وكنت تضحك في عبك من وقوعي تحت تأثيرها، وكنت تنتظر أن أحررها لك من زوجها لتقطف أنت الثمرة وتنظر إليّ بظفر، ولسان حالك يقول: أنت من سعى لتحريرها، وأنا من فزت بالغنيمة بالنهاية!

هل هذه هي الصداقة التي بيننا يا (عادل)؟

هل كنت أستحق منك هذا؟!

على كل حال لقد نال جزاءه العادل، فقد أدرك أخيرًا أنها كانت تتلاعب به أيضًا، ولم يكن في نيتها قط أن تتخلص من زوجها، كانت تتسلى بهما، كما تسلت بغيرهما، ولولا تلك الحادثة لما اكتشف أحدهما شيئًا من هذا.

لقد قدّم إليهما (ميلاد) خدمة جليلة دون أن يعرفهما، أو يشعر بما يحدث لهما، هما مدينان له بهذه الخدمة، لكن ما الذي جناه (ميلاد) من هذا؟ لا شيء، إنه هناك بالمستشفى يبكي ويندب حظه لأنه نجا من الموت، وفسدت خطته مجددًا، فلم تكن الصدمة كافية لقتله، ورسا الأمر على بعض الكسور والكدمات والجراح القليلة، وبمجرد أن يتعافى منها سيتم إيداعه بالمصحة هو الآخر، فقد تبين أنها ليست محاولته الأولى للانتحار، وسبق له أن حاول مرات عديدة موثقة بمحاضر رسمية.

(ربيع) لم يكن يعرف (ميلاد) قبل هذه الحادثة، لكنه تساءل في إشفاق: ما الذي يدفع شابًا كهذا للإصرار على قتل نفسه؟ كان في هذيانه يتحدث عن لقاء ما بإحداهن، أي لقاء هذا الذي يتطلب الموت؟ ولماذا جزع كل هذا الجزع بسبب إخفاقه؟

أدرك (ربيع) أنه لن يغفر لـ (عادل) هذا الأمر، على الأقل لفترة طويلة من الزمن، لن يسامحه على أنه المتسبب الأول في طعن قلبه البكر في أول تجربه يخفق فيها بالحب!!

- "لقد كنت غبيًا، وارتكبت خطأ.. لماذا وقعت في الحب؟!

لماذا وقعت في الحب؟!"

ماذا يعرف (ربيع) عن اللغة الروسية؟ لا شيء على الإطلاق..

لكنه أحب كثيرًا هذه الأغنية!!

***

ساد الصمت لوقت طويل، كانت السيجارة قد انتهت بالفعل بيد (محمود)، فتناولها منه (ربيع) ليلقي بعقبها في المطفأة الموضوعة فوق المكتب، ويلقي معها عقب سيجارته التي انتهى منها قبل (محمود) ولا يزال يمسكه في يدي.

تساءل (محمد) بعد هذا الصمت:-

- "و(جمال).. أين هو؟"

تنهد (ربيع) بصوت مسموع، وتهيأ لصياغة الكذبة بشكل مقنع:-

- "(جمال) في عمله الآن.. يطارد عصابة جديدة، طلب مني أن أبلغك تحياته، وأنه سيزورك عندما تتهيأ له فرصة لذلك، بعيدًا عن رؤسائه بالطبع!"

بالطبع لن يخبره أن (جمال) يشعر بالخزي مما حدث، فـ (محمود) صديق عمره أيضًا، وأكثر ما يمكن أن يقهر رجل شرطة: أن يكتشف أن أحد أقاربه أو أصدقائه مجرم خارج عن القانون، هذا مهين بحق! خاصة حين يعلم رؤساؤه وزملاؤه أنه صديق مقرب له، وبالرغم من ذلك لم يتمكن من كشف حقيقته!

لكن (محمود) ذكي بدرجة مزعجة، لذا سأل باهتمام حقيقي:-

- "هل آذوه بسببي؟"

أجاب (ربيع) بصدق:-

- "لا.. لم يحدث! ما ذنبه هو؟"

فعلاً ما ذنبه هو، لكنه مع ذلك يشعر بالخزي لدرجة حصوله على إجازة لأول مرة، إجازة طويلة، كي يتجنب نظرات زملائه ورؤسائه، كما أنه يفكر جديًا في طلب نقله لمكان بعيد.. (جمال) سيحتاج وقتًا طويلًا حتى يجتاز هذا، وأعتقد أن إيداع (محمود) بالمصحة النفسية سيساعدهما معًا..!

نزع (محمود) سيجارة جديدة من العلبة، ولم يعزم على (ربيع) هذه المرة، وبالطبع لم يحاول هذا الأخير منعه من ذلك، ولو على سبيل الإشفاق.. عاد ينفث الدخان ببطء وبكثافة، ورفع رأسه مجددًا، ليسأل:-

- "هل ستدافع عني؟"

حتى النهاية يا صديقي..

(ربيع) يعرف ويثق بأن (محمود) لم يكن بوعيه، وإن كان لا أحد يعرف - حتى هو نفسه - كيف استطاع أن يفعل كل هذا من داخل حجرته، وكيف استطاع التأثير في هؤلاء الذين استعان بهم حتى يطيعوه بهذا الشكل، وكيف تمكن من رسم كل تلك الخطط بتلك البراعة، المشكلة أنه حتى هو - (محمود) نفسه - لا يستطيع الإجابة عن تلك الأسئلة بكل أسف!

قال وهو ينفث الدخان الكثيف:-

- "أنا لا أذكر شيئًا على الإطلاق مما يزعمون أني فعلته، لكن بما أنك تؤكد أني فعلته إذن هم صادقون! أنا أثق بك أنت لا هم!"

ودمعت عيناه وهو يستطرد:-

- "لا تتخل عني يا صديقي! أرجوك!"

ربّت (ربيع) على كتفه بدفء، وقال:-

– "اطمئن لن أفعل.. سأظل بجانبك بكل طاقتي، وجودي هنا في هذا المكان الذي لا أطيقه أكبر دليل على صدق عزمي على هذا، لكني لا أعرف على أية حال سينتهي هذا الأمر، سأفعل ما بوسعي وليكن ما يكون!"

نجوم.. سيوف.. نسور.. أشرطة..

قرقعة الأحذية على البلاط القديم، النظرات تحيط به في كل موضع هنا، نظرات خاوية، نظرات مرتابة، نظرات حانقة، نظرات مبغضة، نظرات غير مكترثة!

لكن انتهى كل شيء الآن، وسيرحل بهدوء، لكنه ضبط نفسه وهو يغادر المكان يفكر في (ناهد)، ويتساءل: هل من المناسب زيارتها الآن؟ وما الذي يخافه بعد الآن؟!

***

خاتمة

ها أنت تعرف الآن يا سيدي ما جئت من أجله!

نعم.. إنها زوجتك التي تلاعبت بـ (عادل) و(ربيع)، كما تلاعبت بغيرهما من قبل، وكادت أن تذهب إلى السجن، لكنها كانت محظوظة هذه المرة.

أعرف أنها زوجتك، بمجرد أن رأيتك هنا في هذا الحي عرفت أنها زوجتك، ولا تسألني كيف، وعرفت أيضًا أنك قدمت إلى هنا لتعرف ما الذي كان يدور خلف ظهرك، أنا عن نفسي لم أرها قط، ولا أعرف شكلها، ولا ما إذا كانت تستخدم اسم (شهد) دائمًا، أم أنها تخترع اسمًا جديدًا كل مرة، لكني أعرف أنها تتسلى، وأنها تجيد ذلك أيما إجادة، ربما تلاعبت بك أنت أيضًا ذات يوم، لكنها تزوجتك لأنك تمتلك المال والثراء، إن للمال والثراء لسحرًا تضعف أمامه الأنثى، أشد من ضعفنا نحن الرجال أمام الجمال والأنوثة!

ربما لو كانت عرفتني أنا لحاولت أن تلقي شباكها عليّ، وأعلم يقينًا أني — حتى وأنا في سني وحالتي الصحية هذه — ما كنت لأصمد أو أقاوم.

لكن الجيد في الأمر أنك بِتَّ تعرف الآن، وعليك أن تتعامل مع الأمر، أما السيئ في الأمر لو سألتني عن رأيي: أنها هي الوحيدة التي لم تحصل على جزائها في هذه الوقائع المتشابكة، لكن من قال إن الحياة يتعين عليها أن تكون عادلة؟!

نحن لسنا ملائكة، ولن نكون مثاليين قط مهما حاولنا، لكن هناك دائمًا حدود لجموحنا وجنوحنا، أنا لا أتكلم من منطلق الوعظ، بل من منطلق الإنسانية، أنا أتحدث عن الحد الأدنى منها، إن أفضل ما تفعله الآن: أن تنهض معي لنقوم بزيارة (ميلاد) في المستشفى، ونقدم له هدية مع بعض المواساة والدعم، ولو أنك تمتلك مقدارًا أكبر من الإنسانية لسوف تتكفل بعلاجه، وربما تكفلت له أيضًا بمعالج نفسي يخرجه من هذا السرداب الضيق الشائك الذي أقحم نفسه فيه، ويخلصه من تلك الهواجس الراسخة التي

تدفعه إلى الموت.. ثم تعود بعدها إلى بيتك وتحاول أن تحتوي زوجتك، وتكتشف ما الذي تفتقر حياتها إليه، وتفتش عنه بالخارج بهذه التسلية التي تتسلاها.

لكن لا تنس أن تضعها تحت سمعك بصرك طوال الوقت، وتكون متأهبًا للتدخل في الوقت المناسب لحين العثور على حل مناسب.. هل تريد رأيي؟ من الأفضل أن تستعين بـ (سليم) لمراقبتها من أجلك، لقد بات بلا عمل الآن، بعد انتحار سيده (مراد عز الدين)، أنت تعرف بالطبع أن (مراد عز الدين) انتحر، أطلق الرصاص على نفسه بمسدسه الـ (سيج ساور)!! كما أن (سليم) أمين وكتوم، علاوة على أنه اعتاد رفقة الأثرياء وخبر نواقصهم ونزواتهم، يمكنك الاعتماد عليه دون أن تتوجس شيئًا منه، أنا لا زلت أتحدث من ذات المنطلق الإنساني!

***

تتساءلين: عما إذا خنتك من قبل يا (زينب)؟

الإجابة: نعم يا (زينب)، لقد خنتك مرات ومرات، كنت ولا زلت أخونك طوال الوقت كلما سنحت لي الفرصة، لكن.. في خيالي فحسب!

نحن الرجال نفعل في خيالاتنا أشياء كثيرة قد لا تخطر لك على بال، والواقع قد يصدّق ما يحدث في خيالنا أو يكذبه، في حالتي أنا: لم يحدث قط أن صدّق الواقع خيالي، بل يكذبه طوال الوقت.

كم هو غريب عقل الإنسان، وما يمكن أن يفكر فيه، وما يمكن أن يدفعنا لفعله!

إن خيالاتنا متشابكة للغاية، لكن واقعنا أشد تشابكًا وتداخلًا، لكل منا قدر ومصير، قد يتوازى مع أقدار ومصائر البعض، لكنه يتقاطع مع الأكثرين، بائع الجرائد هذا الذي أشتري منه الصحيفة يوميًا له حياة، وأنا لي حياة، وهؤلاء الزبائن الآخرين الذين يقفون أمام الفرش يطالعون العناوين الرئيسة والمانشيتات العريضة، ومنهم من يشتري، ومنهم من يكتفي بالمشاهدة، لكل منهم قدر ومصير، تقاطع مع أقدار ومصائر آخرين.

إنها ليست حياة واحدة تلك التي نحياها، بل حيوات متداخلة لا يمكن فصلها عن بعضها البعض، أنا وأنت يا (زينب) قد تقاطع قدرنا ومصيرنا وتداخل بشكل شديد التعقيد، بحيث أمسى من المستحيل الفصل بينهما، احذفيني من حياتك ثم انظري ما الذي سيتبقى لك من حياتك؟ ربما القليل جدًا، واحذفي نفسك من حياتي، ثم انظري ما الذي سيتبقى لي منها؟ ربما لا شيء على الإطلاق!

أقولها لك صادقًا يا (زينب)، وأنا أستعد لاستقبال النهاية، وقبل أن أفقد حواسي تباعًا، وأفقد كل اتصال بيني وبين هذا العالم: أني لا أعرف لي حياة إلا معك، ربما لم أعبر عن هذا بالنحو الكافي، ربما حتى قصرت في الوفاء بحقك هذا، وشغلتني هواياتي واهتماماتي الأخرى عنك، لكن تلك الهوايات والاهتمامات لم تمنحني قط ولو جزءًا يسيرًا مما منحتني أنتِ إياه.

أنا الآن أتقبل مصيري، وهذه ليست شجاعة مني، ولا حتى هو رضا أو قناعة، بل استسلام، ماذا بوسعي أن أفعل سوى أن أتقبل هذا المصير؟ ربما الشيء الوحيد الذي يعكر صفو هذا التقبل: إدراكي أن حياتي تقاطعت مع آخرين – وأنت منهم – لكنها لم تترك أثرًا عميقًا في أحد، وسوف ينساني الجميع بعد أيام قليلة من رحيلي، وتلاشى أي ذكرى لي معهم، وربما ستقتصر الذكرى على صورة باهتة لشخص يصر على أن يحمل صحيفة تحت إبطه، ليجلس بأحد المقاهي، وينخرط في حل الكلمات المتقاطعة، أو الثرثرة مع بعض الزبائن، هذا هو كل رصيدي من الذكريات لدى الآخرين، وأعتقد أنه رصيد هزيل للغاية.. هزيل لأبعد الحدود.

أنا لم أعتد أن أحصي كم مضى لي من الأيام والسنين بهذه الحياة، ولست مهتمًا بأن أحصي كم بقي لي فيها، أنا لا أجيد سوى إحصاء عدد الفراغات التي ينبغي عليّ أن أملأها بمربعات الكلمات المتقاطعة، تلك الحروف التي تتقاطع وتتداخل تمامًا كما تتقاطع وتتداخل أقدارنا ومصائرنا!!

***

الفهرس

الفصل الأول ٢
الفصل الثاني ١٠
الفصل الثالث ١٩
الفصل الرابع ٢٩
الفصل الخامس ٣٦
الفصل السادس ٤٣
الفصل السابع ٤٩
الفصل الثامن ٥٧
الفصل التاسع ٦٥
الفصل العاشر ٦٧
الفصل الحادي عشر ٧٠
الفصل الثاني عشر ٧٣
الفصل الثالث عشر ٧٩
الفصل الرابع عشر..... ٨٤
الفصل الخامس عشر..... ٨٩
الفصل السادس عشر..... ٩٤
الفصل السابع عشر..... ١٠٣
الفصل الثامن عشر ١٠٩
الفصل التاسع عشر..... ١١٣
الفصل العشرون ١١٩
الخاتمة ١٢٦

دار فنون للنشر والتوزيع

كتاب : كلمات متقاطعة
الكاتب : جابر القصاص
غلاف: محمد طه مخلوف
تنسيق: جابر القصاص
رقم الإيداع: 8640/ 2023م
الترقيم الدولي: 978-977-6856-19-3

ابن معيط للطباعة
ت: 01062765736–012221235833
بريد إلكتروني ahmedragbmait@gmail.com

الطبعة الأولى 2023م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة نشر دون موافقة قانونية مكتوبة من الكاتب يعرض صاحبه للمساءلة القانونية
والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير

كَلِمَاتٌ مُتَقَاطِعَةٌ

إن خيالاتنا متشابكة للغاية، لكن واقعنا أشد تشابكًا وتداخلًا!

أنا لم أعتد أن أحصي كم مضى لي من الأيام والسنين بهذه الحياة،

ولست مهتمًا بأن أحصي كم بقي لي فيها، أنا لا أجيد سوى إحصاء

عدد الفراغات التي ينبغي عليّ أن أملأها بمربعات الكلمات المتقاطعة،

تلك الحروف التي تتقاطع وتتداخل تمامًا كما تتقاطع وتتداخل أقدارنا ومصائرنا!!

فنون

كلماتٌ متقاطعةٌ

جابر القصاص

ابن معيط للطباعة